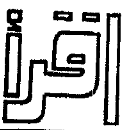
اقرأ

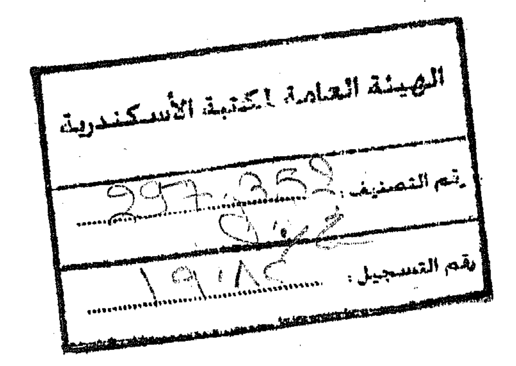
دكتور علي حسني الخربوطلي

...حبة
على ... العصور

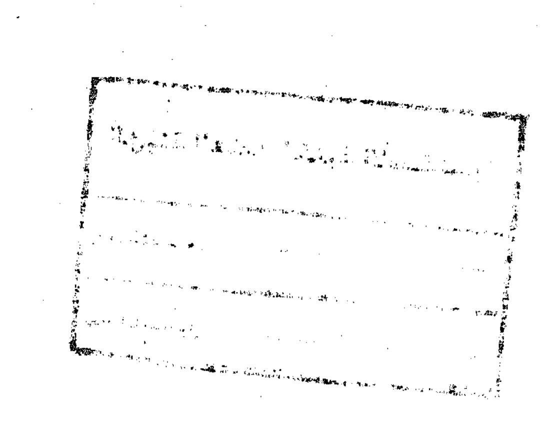
دار المعارف

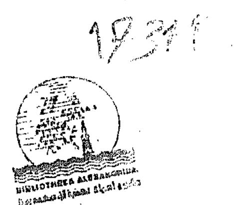


[٢٩١]



الكعبة على مر العصور





دكتور علي حسني الخربوطلي

الكعبة على مر العصور

الطبعة الثانية

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه هي دراسة علمية منهجية لتاريخ الكعبة المقدسة ، التي يقدسها المسلمون فى أرجاء الأرض ، ويحجون إليها فى كل عام ، لتأدية فريضة الحج التي هى ركن من أركان الإسلام ، حيث يجتمعون بين يدى الله عز وجل ، فيتوجهون إليه بالدعاء ، ويلتمسون الغفران والبركات . وقد اعتمدنا فى هذه الدراسة على القرآن الكريم وكتب السيرة النبوية والمصادر العربية الإسلامية الأصلية ، ودرسنا تاريخ الكعبة منذ قيامها ، وفصلنا تاريخها على مر العصور المختلفة ، حتى اليوم .

فتحدثنا عن قيام الكعبة على يد إبراهيم وولده إسماعيل بأمر من الله سبحانه وتعالى . وقد أصبحت الكعبة بيتاً لله ومركزاً لعقيدة التوحيد . ثم درسنا الأحداث التاريخية التي أدت إلى ظهور الوثنية ، وتناولنا بالحديث حركة الحنيفية التي عملت على إحياء دين التوحيد الذى دعا إليه إبراهيم عليه السلام ، ودعت إلى تطهير الكعبة من الأوثان . ودرسنا دور الكعبة فى تطور مدينة مكة وحضارتها ، وارتفاع شأن قريش فى الجزيرة العربية .

ثم شهدنا شروق شمس الإسلام ، التي أنارت أرجاء الجزيرة العربية ، والعالم أجمع ، بأنوار الهداية والحق ، فبدأت الكعبة تدخل فى دور جديد وعادت كما كانت بيت الله الحرام ، ومقصد الحجاج المسلمين .

وتحدثنا عن الكعبة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد اشترك الرسول فى تجديد بناء الكعبة ، وقام بدور كبير فى حسم النزاع الذى ثار بين القبائل ، وقام بوضع الحجر الأسود بيديه الكريمتين فى موضعه .

وشهدنا دعوة الرسول أهل مكة إلى الإسلام عند الكعبة ، وصلاة المسلمين عندها ، ثم خروج الرسول من المدينة إلى مكة لأداء العمرة ، ثم قدومه ليحج حجة الوداع ، التى لقن فيها المسلمين مناسك الحج .

كما درسنا اهتمام المسلمين بتجديد بناء الكعبة ، وصيانتها ، وكسوتها ، على مرّ العصور التاريخية وانتهينا من دراستنا عند تاريخنا المعاصر ، واهتممنا بتزويد القارئ بصورة وصفية مفصلة للكعبة .

ونرجو أن يكون التوفيق قد حالفنا فى هذه الدراسة الجديدة لتاريخ الكعبة المعظمة ، والله سبحانه وتعالى دائماً ولى التوفيق .

المؤلف

١ ــ روايات حول الكعبة قبل إبراهيم

قام إبراهيم وابنه إسماعيل ببناء الكعبة ، بعد نزوحهما من فلسطين إلى بلاد الحجاز ، بأمر من الله سبحانه وتعالى . وهو ما يؤكده القرآن الكريم ، ويجمع عليه المؤرخون . ولكن يحلو لبعض المؤرخين أن يذكروا بعض الروايات التي تدور حول تاريخ بناء الكعبة ، فيجعلون لتاريخ الكعبة أصولا وجذوراً تمتد إلى ما قبل عهد إبراهيم وإسماعيل ، ويصبح الخيال الواسع عنصراً بارزاً في بعض الروايات . واختلاف بعض الروايات وتناقضها ، وعدم موافقتها للكتب السماوية ، يجعلنا لا نؤمن بصحتها . ولكننا ونحن ندرس تاريخ الكعبة المعظمة ، لا نرى بأساً من أن نذكر بعض هذه الروايات التي حوتها كتب بعض المؤرخين الأقدمين ، فقد أصبحت جزءاً من تواريخهم ، وهي محط أنظار القراء في كل زمان ، وحتى يمكننا أن نناقش هذه الروايات ونحكم عليها حكماً تاريخياً منهجياً .

فهناك من المؤرخين القدماء من ينسب بناء البيت إلى الملائكة قبل أن يبرأ الله عز وجل الأرض ، ومنهم من نسب بناءها إلى آدم عليه السلام أو إلى ابنه (شيث) . ولكن هذه الروايات لا تستند إلى مصدر أصلي قديم . وجميع الشواهد تؤكد أن وادي مكة قبل نزوح إبراهيم وإسماعيل كان غير ذي زرع ، لا يسكنه أحد ، لعدم توافر وسائل الحياة .

أما المؤرخون الذين ينسبون بناء البيت إلى الملائكة ، فيذكرون أن الله عز وجل غضب على الملائكة حين قال لهم : (إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح

بحمدك ونقدس لك) . وغضب الله سبحانه وتعالى على الملائكة وأعرض عنهم ، فلاذ الملائكة بالعرش ورفعوا رءوسهم وأشاروا بالأصابع يتضرعون ويبكون إشفاقاً من هذا الغضب ، وطافوا بعرش الله سبعاً كما يطوف الناس بالبيت الحرام وهم يقولون : « لبيك اللهم لبيك ، ربنا معذرة إليك ، نستغفرك ونتوب إليك » . فنظر الله عز وجل إليهم ، ونزلت الرحمة عليهم ، ووضع الله سبحانه وتعالى تحت العرش بيتاً هو البيت المعمور ، ثم قال للملائكة : طوفوا بهذا البيت ، ودعوا العرش . فكان طوافهم بهذا البيت أيسر عليهم من طوافهم بعرش الخالق .

ثم أمر الله سبحانه وتعالى الملائكة ، كما يذكر المؤرخون ، من سكان الأرض ، أن يبنوا فى الأرض بيتاً على مثال البيت المعمور ، وأمر من فى الأرض أن يطوفوا به ، كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور .

فبنته الملائكة قبل خلق آدم بألفى عام ، وكانوا يحجون إليه . فلما حج آدم إلى هذا البيت قالت الملائكة له : « بر حجك يا آدم ، حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام » .

وروى العمرى فى كتابه « مسالك الأبصار »[1] عن عبد الله ابن عمرو بن العاص أنه قال : « خلق الله البيت قبل الأرض بألفى سنة ، وكان عرشه على الماء على زبدة بيضاء ، فدحيت الأرض من تحته » وأسند العمرى هذه الرواية أيضاً إلى مجاهد وقتادة والسدّى .

وأسند العمرى إلى قتادة أنه قال : « ذكر لنا أن البيت هبط مع آدم ، وحين أهبط قال الله : أهبط معك بيتى يطاف به كما يطاف حول عرشى . فطاف حوله آدم ومن كان بعده من المؤمنين ، حتى إذا كان زمن الطوفان ، رفعه الله وطهره من أن تصيبه عقوبة أهل الأرض ،

(١) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار جـ ١ ص ٩٣ (طبعة دار الكتب ١٩٢٤).

فصار معموراً فى السماء . ثم إن إبراهيم تتبع منه أثراً بعد ذلك ، فبناه على أساس قديم كان قبله »(١) .

وقال عطاء بن أبى رباح : وجه آدم إلى بكة(٢) حين استوحش ، فشكا ذلك إلى الله عز وجل فى دعائه . فلما انتهى إلى بكة ، أنزل الله ياقوتة من ياقوت الجنة ، فكانت على موضع البيت الآن. فلم يزل يطوف به حتى أنزل الله الطوفان ، فرُفعت تلك الياقوتة ، حتى بعث الله عز وجل إبراهيم فبناه ، فذلك قوله تعالى : (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت) . ويسند العمرى هذه الرواية إلى أبى عروبة .

وروى أبو الوليد الأزرقى بسنده عن علىّ بن الحسين بن على بن أبى طالب ، قال : إن الله تبارك وتعالى بعث ملائكة ، فقال ابنوا لى بناء فى الأرض تمثال البيت وقدره . وأمر الله مَنْ فى الأرض من خلقه أن يطوفوا به ، كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور . قال : وكان هذا قبل خلق آدم ، عليه السلام ، والله أعلم(٣) .

ومن الروايات التى تدور حول بناء آدم البيت ، رواية تفرد ابن لهيعة فى نسبتها إلى الرسول ، أنه قال : « بعث الله جبريل إلى آدم وحواء فقال لهما : ابنيا لى بيتاً ، فخط لهما جبريل ، فجعل آدم يحفر ، وحواء تنقل ، حتى إذا أجابه الماء ، نودى من تحته : حسبك يا آدم . فلما بنيا أوحى الله تعالى إليه أن يطوف به ، وقيل له : أنت أول الناس وهذا أول بيت . ثم تناسخت القرون حتى رفع إبراهيم القواعد فيه » .

وينسب ابن قتيبة فى كتابه « المعارف »(٤) بناء الكعبة إلى شيث

(١) مسالك الأبصار ج ١ ص ٩٣ .

(٢) أى مكة .

(٣) مسالك الأبصار ج ١ ص ٩٤ .

(٤) المعارف ص ١٠ (المطبعة الحسينية ١٩٣٤) .

ابن آدم ، فروى : « كان شيث بن آدم أجل ولد آدم وأفضلهم وأشبههم به وأحبهم إليه ، وكان وصى أبيه وولى عهده ، وهو الذى ولد البشر كلهم ، إليه انتهى أنساب الناس ، وهو الذى بنى الكعبة بالطين والحجارة ، وكان هناك خيمة لآدم وضعها الله له من الجنة » . ويروى العمرى [1] : « وقيل إن آدم أول من بناها – أى الكعبة – وقيل شيث ابن آدم ، وكانت قبل بنائه خيمة من ياقوتة حمراء ، يطوف بها آدم » . ولكن العمرى بعد أن عدّد روايات كثيرة لا يجزم إذا كان بناء الكعبة قبل إبراهيم كان على يد الملائكة أو على يد آدم ، أو على يد ابنه شيث .

وهناك روايات كثيرة يذكرها مؤرخون أقدمون ، ولا نرى بأساً من ذكر بعضها ، فيذكر المؤرخ المسعودى أن قوم عاد لما أصابهم القحط « وفدوا إلى مكة يستسقون ، وكانوا يعظمون موضع الكعبة قبل أن يشيد بناءها إبراهيم ، وكان ربوة حمراء » ، وتتعدد الروايات عند بعض المؤرخين ، فيذهبون إلى أنه كان فى مكان الكعبة معبد قديم للعماليق ، اندثر واختفى ، قبل قدوم إبراهيم إلى بلاد الحجاز ، مما جعل هذه البلاد موضع تقديس ، حتى إن المصريين القدماء سموا بلاد الحجاز « البلاد المقدسة » .

قبل الكعبة ، كان لبعض الأنبياء بيوت ، فقد عرف نوح البيوت وسكنها قبل إبراهيم ، وكان لإبراهيم بيوت فى وطنه ، ولكن الكعبة كانت أول بيت وضع للناس لعبادة الله الواحد الأحد ، وفيه آيات بينات .

---

(١) مسالك الأبصار ج ١ ص ٩٤ .

٢ ــ بناء إبراهيم وإسماعيل الكعبة

قدوم إبراهيم وإسماعيل إلى الحجاز :

يرتبط تاريخ بناء الكعبة بقصة إبراهيم وابنه إسماعيل ، عليهما السلام ، ونزوحهما من فلسطين إلى مكة ببلاد الحجاز ، مما يجعلنا نشير إلى قصتهما فى إيجاز .

نشأ إبراهيم فى بلاد العراق ، وكان أبوه نجاراً تخصص فى صناعة الأصنام التى كان يعبدها مواطنوه ، وكان اشتراك إبراهيم مع أبيه فى تشكيل الأوثان دافعاً على العزوف عن عبادتها . حتى إذا أصبح شاباً ، تسلل إلى المعبد وحطم الأصنام عدا كبيرها ، وسأله مواطنوه (أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون) [1] . وعاقب الوثنيون إبراهيم على تحطيمه أوثانهم بأن ألقوه فى النار ، ولكن الله عز وجل جعلها برداً وسلاماً . وخرج إبراهيم إلى فلسطين ناجياً بنفسه وبزوجه سارّة .

ثم رحل إبراهيم إلى مصر حيث كان يحكمها ملوك الهكسوس (العماليق) ؛ وكان أحد ملوكهم ينتزع الزوجات الجميلات بعد أن يقتل أزواجهن . وأعلن إبراهيم بين الناس أن سارة أخته حتى ينجو من القتل . وانتزع الملك سارة من إبراهيم ، ولكن العناية الإلهية كانت تحيط بإبراهيم ، فرأى الملك فى نومه أن سارة ما هى إلا زوجة إبراهيم ، فندم

---

(١) سورة الأنبياء آية ٦٢ و ٦٣ .

وأعادها إلى زوجها ، ومنحه كثيراً من الهدايا ومن بينها جارية تدعى هاجر .

وكانت سارة لم تنجب لإبراهيم ، ودفعتها عاطفة الأمومة إلى أن تطلب من إبراهيم الدخول بهاجر حتى تنجب له غلاماً يقر الله به عيونهما فأنجب إبراهيم من هاجر ولداً أسموه إسماعيل . وبعد فترة أنجبت سارة ابنها إسحاق .

وتساوى عطف إبراهيم على ولديه ، إسماعيل وإسحاق ، ولكن سارة غضبت من أن يساوى زوجها بين ابن جاريتها وابنها ، وهي الحرة . وأصرّت سارة على أن يخرج إبراهيم بهاجر وإسماعيل بعيداً عنها . فخرج بهما من فلسطين إلى الحجاز ، وانتهى إلى الوادى الذى قامت فيه مكة فيما بعد . وكان وادياً قفراً غير ذى زرع ، تتخذه بعض القوافل محطة تستريح فيه خلال رحلاتها التجارية . وفى ذلك يقول الطبرى (١) : « وأوحى الله الى إبراهيم أن يأتى مكة وليس يومئذ بمكة بيت » . وترك إبراهيم ابنه إسماعيل وأمه هاجر ، بعد أن ترك لهما اليسير من الطعام والماء ، وعاد إلى فلسطين حيث ترك سارة وإسحاق .

تحدث المؤرخ المسعودى (٢) عن المكان الذى نزل فيه إبراهيم وهاجر وإسماعيل ، فقال : « ولما أسكن إبراهيم ولده إسماعيل مكة مع أمه هاجر ، واستودعهما خالقه على حسب ما أخبر الله عنه أنه أسكنه بواد غير ذى زرع ، وكان موضع البيت ربوة حمراء ، أمر إبراهيم هاجر أن تتخذ عليها عريشاً يكون لها مسكناً » .

وفرغ الطعام والماء ، وتعالت صيحات الطفل ، وخشيت هاجر على ابنها من الموت عطشاً وجوعاً ، وغادرت مكانها لتبحث عن الماء ، مما

---

(١) الطبرى ج ١ ص ١٧٩ (المطبعة التجارية ١٩٤٩) .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٤٦ (المطبعة التجارية) .



يدفع عنهما الهلاك . وأخذت تهرول بين الصفا والمروة ، حتى إذا أتمت السعى سبع مرات ، عادت إلى إسماعيل ، فإذ به يفحص الأرض بقدمه ، حيث نبع الماء من الأرض ، وظهرت بئر زمزم ، وكتب الله لإسماعيل وأمه النجاة .

ويروى الطبرى أن الله عز وجل أنزل جبريل ففجّر هذه البئر ، وقد بشر جبريل هاجر بعودة إبراهيم فى يوم ما وبنائه الكعبة ، قال الطبرى (١) : « وقال لها الملك : لا تخافى الظمأ على أهل هذا البلد ، فإنها عين لشرب ضيفان الله ، إن أبا هذا الغلام سيجىء فيبنيان لله بيتاً هذا موضعه » .

وصادف أن مرّت قبيلة جرهم بهذا المكان ، فشاهدت طيوراً تحلق فى السماء ، فأدركوا أن هناك ماء ، وعجبوا من ذلك ، فقد كانوا يمرون بالمكان فيجدونه قفراً جدباً ، وعثرت جرهم على هاجر وابنها ، واستأذنوا منها فى الإقامة إلى جانب هذه البئر ، فأذنت لهم . وشب إسماعيل فى قبيلة جرهم ، وتعلم منهم اللغة العربية ، فيقول المسعودى (٢) : « وأذنت لهم فى النزول ، فتلقوا من كان وراءهم من أهليهم ، وأخبروهم خبر الماء ، فنزلوا الوادى مطمئنين ، مستبشرين بالماء ، مما أضاء الوادى من نور النبوة وموضع البيت الحرام ، فرحين ، وعيل إسماعيل ، وتكلم إسماعيل بالعربية خلاف لغة أبيه » .

مقدّمات بناء الكعبة :

مرّت السنون ، وماتت هاجر وهى فى التسعين من عمرها . وأصبح إسماعيل شاباً يافعاً ، وتزوج إحدى فتيات قبيلة جرهم ، وتدعى الجداء

(١) الطبرى ج ١ ص ١٧٩ .
(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٤٧ .

بنت سعد . وفى يوم اشتاق إبراهيم لرؤية ابنه إسماعيل ، فاستأذن من زوجته سارة فى الرحيل ، فأذنت له . وقصد إبراهيم إلى دار إسماعيل ، وكان حينئذ غائباً فى رحلة صيد ، وطرق إبراهيم الباب ، فخرجت له الجداء ، فقال لها إبراهيم : أين صاحبك ؟ قالت : ليس هاهنا ، ذهب يتصيد . فقال إبراهيم : هل عندك ضيافة ، هل عندك طعام أو شراب ؟ قالت : ليس عندى ، وما عندى أحد . فقال إبراهيم : إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولى له فليغير عتبة بابه . وعاد إسماعيل من رحلته ، وعلم بالقصة ، فطلق زوجته ، وتزوج من فتاة جرهمية أخرى تدعى سامة بنت مهلهل[1] .

ودفع الشوق إبراهيم إلى القدوم مرّة أخرى إلى مكة ليرى ابنه إسماعيل ، وأذنت له سارة بذلك واشترطت عليه أن لا ينزل عن جواده « فجاء إبراهيم حتى انتهى إلى باب إسماعيل ، فقال لامرأته : أين صاحبك ؟ قالت : ذهب يتصيد وهو يجىء الآن إن شاء الله ، فانزل يرحمك الله . قال لها : هل عندك ضيافة ؟ قالت : نعم . قال : هل عندك خبز أو برّ أو شعير أو تمر ؟ فجاءت باللبن واللحم . فدعا لهما بالبركة . فلو جاءت يومئذ بخبز أو برّ أو تمر أو شعير لكانت أكثر أرض الله برّاً أو شعيراً أو تمراً[2] » .

ويروى المسعودى[3] رواية عن تبشير إبراهيم ببناء الكعبة ، فروى : « وألحت الجرهمية على إبراهيم فى النزول ، فأبى ، فقدّمت إليه لبناً وشرائح من لحم الصيد ، فدعا فيه بالبركة ، وجاءته بحجر كان فى البيت ، فمال عن ركابه ، وجعلته تحت قدمه اليمنى ، ثم رجّلت شعره

---

(١) الطبرى ج ١ ص ١٨١ .

(٢) الطبرى ج ١ ص ٤٨ .

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٤٨ .

ودهنته ، ثم حوّلت الحجر إلى شماله ، فوضع رجله اليسرى عليه أيضاً ، ومال برأسه نحوها ، فرجلته ودهنته ، فأثرت قدماه فى الحجر على ما وصفنا من ترتيب اليمين والشمال ، فلما رأت الجرهمية ذلك أكبرت ما شاهدته ، وهذا الحجر هو مقام إبراهيم ، فقال لها إبراهيم : ارفعيه فسيكون له شأن ونبأ بعد حين . ثم قال لها : إذا جاءك إسماعيل فقولى له : إن إبراهيم يقرأ عليك السلام ويقول لك : احتفظ بعتبة بيتك ، فنعمت العتبة هى ، وسار إبراهيم راجعاً نحو الشام » .

تطورت مكة ، وزاد عدد سكانها ، فقد علمت بطون جرهم والعماليق بحلول الماء والخصب فى مكة ، فأقبلوا على النزول بها ، وأصبح الحارث ابن مضاض بن عمرو الجرهمى زعيم أهل مكة(١) .

بناء الكعبة :

قدم إبراهيم مرة أخرى إلى مكة ، وكان إسماعيل حينئذ فى الثلاثين من عمره . وفى هذه المرّة أمر الله عز وجل إبراهيم ببناء الكعبة ، وتعاون الأب والابن على تنفيذ أمر المولى سبحانه وتعالى .

وروى المؤرخون كثيراً من الروايات حول بناء الكعبة . ومن أدق هذه الروايات وأوجزها ، ما رواه الطبرى(٢) عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : « جاء إبراهيم فوجد إسماعيل يصلح نبلا له من وراء زمزم . فقال إبراهيم : يا إسماعيل إن ربك قد أمرنى أن أبنى له بيتاً . فقال له إسماعيل : فأطع ربك فيما أمرك . فقال إبراهيم : قد أمرك أن تعيننى عليه . قال : إذاً أفعل . فقام معه ، فجعل إبراهيم يبنيه وإسماعيل يناوله الحجارة ويقولان : (ربنا

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٤٧ .
(٢) الطبرى ج ١ ص ١٨٢ .

تقبل منا إنك أنت السميع العليم) ، فلما ارتفع البنيان وضعف الشيخ عن رفع الحجارة ، قام على حجر ، وهو مقام إبراهيم ، فجعل يناوله ويقولان : تقبل منا إنك أنت السميع العليم. فلما فرغ إبراهيم من بناء البيت الذى أمره الله عز وجل ببنائه أمره الله أن يؤذن فى الناس بالحج فقال له : (وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) » .

ولكن الطبرى روى روايات أخرى كثيرة لا تختلف عن الرواية الأولى فى جوهرها ، ولكنها تزيد عليها فى بعض التفاصيل . وتعددت الروايات ، واختلفت فى بعض عناصرها وتفاصيلها . وتختلف الروايات حول من دلّ إبراهيم إلى المكان الذى أقام فيه الكعبة ، وهل هى ريح السكينة أو جبريل عليه السلام ؟ من هذه الروايات : « أن رجلا قام إلى على بن أبى طالب فقال : ألا تخبرنى عن البيت ، أهو أول بيت وضع فى الأرض ؟ فقال : لا ولكنه أول بيت وضع فى البركة مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمناً ، وإن شئت أنبأتك كيف بنى ، إن الله عز وجل أوحى إلى إبراهيم أن ابن لى بيتاً فى الأرض ، فضاق إبراهيم بذلك ذرعاً ، فأرسل عز وجل السكينة وهى ريح خجوج ولها رأسان فاتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت إلى مكة ، فتطوت على موضع البيت كتطوى الحية ، وأمر إبراهيم أن يبنى حيث تستقر السكينة ، فبنى إبراهيم »(١) .

ويروى الطبرى عن ابن إسحاق أن جبريل صحب إبراهيم من الشام إلى الحجاز ليدله على مكة التى ستقام فيها الكعبة ، وأسند هذه الرواية إلى ابن إسحاق فقال : « عن مجاهد وغيره من أهل العلم ، أن الله عز وجل لما بوّأ لإبراهيم مكان البيت ومعالم الحرم ، خرج وخرج معه جبرائيل ، يقال كان لا يمر بقرية إلا قال : بهذه أمرت يا جبرائيل ؟

---

(١) الطبرى ج ١ ص ١٧٦ .

فيقول جبرائيل : أمضه . حتى قدم به مكة ، وهى إذ ذاك عضاة سلم وسمر وبها أناس يقال لهم العماليق خارج مكة وما حولها والبيت يومئذ ربوة حمراء مدرة . فقال إبراهيم لجبرائيل : أهاهنا أمرت أن أضعهما ؟ قال نعم »[١] .

وروى العمرى[٢] عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة أنه قال : « ذكر لنا أن قواعد البيت من حراء ، وذكر لنا أن البيت من خمسة أجبل : حراء ولبنان والجودىّ وطور سينا وطور زيتا » . كما روى العمرى أيضاً عن السهيل : « أن الملائكة كانت تأتى إبراهيم عليه السلام بالحجارة » .

الحجر الأسود :

مضى إبراهيم وإسماعيل فى بناء الكعبة كما أمرهما الله عز وجل ، وأوشك البناء أن ينتهى ، وبقى حجر واحد « فذهب الغلام يبغى شيئاً ، فقال إبراهيم : لا ، ابغ حجراً كما آمرك ! فانطلق الغلام يلتمس له حجراً ، فأتاه به ، فوجده قد ركب الحجر الأسود فى مكانه فقال : يا أبت من أتاك بهذا الحجر ؟ فقال : أتانى به من لم يتكل على بنائك ، أتانى به جبرائيل من السماء »[٣] .

ويروى الطبرى[٤] رواية أخرى لا تختلف فى جوهرها عن الرواية السابقة ، ولكنها تزيد عليها فى بعض التفاصيل ، وقد أسندها الطبرى إلى على بن أبى طالب ، فقال : « فوضع إبراهيم الأساس ورفع البيت هو

---

(١) الطبرى ج ١ ص ١٧٨ .
(٢) مسالك الأبصار ج ١ ص ٩٤ .
(٣) الطبرى ج ١ ص ١٧٦ .
(٤) الطبرى ج ١ ص ١٧٧ .

وإسماعيل حتى انتهيا إلى موضع الركن . قال إبراهيم لإسماعيل : يا بني ابغ لي حجراً أجعله علماً للناس . فجاءه بحجر ، فلم يرضه . وقال : ابغني غير هذا . فذهب إسماعيل ليلتمس له حجراً ، فجاءه ، فقد أتى بالركن فوضعه في موضعه ، فقال : يا أبت من جاءك بهذا الحجر ؟ قال : من لم يكلني إليك يا بني ! » .

والحجر الأسود حجر صقيل بيضي ، غير منتظم ولونه أسود يميل إلى الاحمرار ، وفيه نقط حمراء ، وتعاريج صفراء . ويقول أحد الكتاب (١) « هذا الحجر قد يكون من نوع النيازك بدليل وصفه أنه كان يتلألأ نوراً فأضاء شرقاً وغرباً وشاماً ويمناً إلى منتهى أنصاب الحرم . وتلألؤه الموصوف دليل على أنه كان ذا لون غير السواد ، ولكن بعض المؤرخين يعلل سواده بأنجاس الجاهلية وأرجاسها . وبعض النيازك يتغير لونها بمجرد مرور الزمن عليها ، ومنها ما يتلألأ ويلمع . والكلمة من أصل فارسي " ينزه " وهو أحد أقسام الشهب ، والشهاب ما يرى كأنه كوكب انقض من السماء وتكثر في شهر آب » .

ويرى كاتب آخر (٢) أن تقديس الحجر الأسود نجم من ارتباطه بشيء مقدس محترم ، فهذا الحجر الذي وضعه إبراهيم عليه السلام في الكعبة إما أن يكون قد وضعه تذكاراً لصدعه بأمر ربه حين أمره برفع قواعد هذا البيت المعظم ، وإما أن يكون رمزاً للعهد الذي أخذه إبراهيم على نفسه وولده بجعله هذا البيت مثابة للناس وأمناً ، وإما أن يكون قد أقامه إبراهيم عليه السلام حجة عليه وعلى ولده بأن هذا البيت قد انتقل

---

(١) لطفي جمعة : ثورة الإسلام ص ٥٩ .

(٢) الهجرسي : كتاب الحج ص ٢٥ .

من ملكيتهم إلى الله تعالى ليكون للناس مصلى ومسجداً للطائفين والعاكفين والركع السجود . ولذا وضعه فى الركن الأقرب إلى الباب ليكون أول حدود هذا البيت المكرم ، الذى يبتدئ منه الطائفون ، واختار له اللون الأسود لسهولة تعيينه وتحديد مكانه ، لذلك كان الحجر الأسود محترماً من إبراهيم ، محترماً من ولده ، مقدساً عند المسلمين إلى اليوم وإلى الغد .

روى الإمام أحمد والبخارى ومسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم وقف عند الحجر الأسود فقال : « إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع » . ثم قبله . ولما حج أبو بكر وقف عند الحجر وقال : إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك . وكذلك فعل عمر بن الخطاب عند حجه بالناس .

وصف الرّحالة ابن بطوطة [1] الحجر الأسود كما شاهده خلال رحلته إلى مكة ، فقال : « وأما الحجر الأسود ، فارتفاعه عن الأرض ستة أشبار ، فالطويل من الناس يتطامن لتقبيله ، والصغير يتطاول إليه ، وهو ملصق فى الركن الذى إلى جهة المشرق ، وسعته ثلثا شبر ، وطوله شبر وعقد ، ولا يعلم قدر ما دخل منه فى الركن ، وفيه أربع قطع ملصقة . وجوانب الحجر مشدودة بصفيحة من فضة ، يلوح بياضها على سواد الحجر الكريم ، فتجتلى منه العيون حسناً باهراً . ولتقبيله لذة ينعم بها الفم ، ويود لاثمه ألا يفارق لثمه ، خاصة مودعة فيه ، وعناية ربانية به . وكفى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه يمين الله فى أرضه . (نفعنا الله باستلامه ومصافحته ، وأوفد عليه كل شيق إليه) . وفى القطعة الصحيحة من الحجر الأسود ، مما يلى جانبه الموالى ليمين مستلمه ، نقطة بيضاء

(١) رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ١٠٧ (المطبعة الأميرية ١٩٣٩) .

صغيرة مشرقة ، كأنها خال فى تلك الصحيفة البهية . وترى الناس إذا طافوا بها يتساقط بعضهم على بعض ازدحاماً على تقبيله ، فقلما يتمكن أحد من ذلك إلا بعد المزاحمة الشديدة ، وكذلك يصنعون عند دخول البيت الكريم . ومن عند الحجر الأسود ابتداء الطواف ، وهو أول الأركان التى يلقاها الطائف ، إذا استلمه تقهقر عنه قليلا ، وجعل الكعبة الشريفة عن يساره ، ومضى فى طوافه ، ثم يلقى بعده الركن العراقى ، وهو إلى جهة الشمال ، ثم يلقى الركن الشامى وهو إلى جهة الغرب ، ثم يلقى الركن اليمانى وهو إلى جهة الجنوب ، ثم يعود إلى الحجر الأسود وهو إلى جهة الشرق » .

الكعبة بعد تمام بنائها :

أتم إبراهيم واسماعيل بناء الكعبة . ووصف المؤرخ المسعودى(١) البيت الحرام بعد تمامه فقال : « . . . وطوله ثلاثون ذراعاً ، والحجر فيه وهو سبعة أذرع ، وعرضه اثنان وعشرون ذراعاً ، وسمكه سبعة أذرع . وعرضه اثنان وعشرون ذراعاً ، وسمكه سبعة أذرع ، وجعل له باباً ، ولم يسقف . ووضع الركبة موضعه ، وألصق المقام بالبيت ، وذلك قوله عز وجل : (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) — الآية . وأمر الله تعالى إبراهيم أن يؤذن فى الناس بالحج » .

ووصف صاحب كتاب « تاريخ الكعبة المعظمة » بيت الله الحرام بعد انتهاء إبراهيم وإسماعيل من بنائه وصفاً مفصلا فقال : إن إبراهيم جعل ارتفاع البيت إلى اليسار تسع أذرع ، وطوله من الشمال إلى الجنوب مما يلى الجهة الشرقية اثنتين وثلاثين ذراعاً ، ومن الشمال إلى الجنوب مما يلى الجهة الغربية أيضاً إحدى وثلاثين ذراعاً ، ومن الشرق إلى الغرب مما يلى

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٩ .

الجهة الجنوبية ، أى من الحجر الأسود إلى الركن اليمانى عشرين ذراعاً ، ومن الشرق إلى الغرب أيضاً مما يلى الجهة الشمالية ، أى من جهة حجر إسماعيل اثنتين وعشرين ذراعاً ، وجعل له بابين ملاصقين للأرض ، أولهما فى الجهة الشرقية مما يلى الحجر الأسود ، والآخر من الجهة الغربية مما يلى الركن اليمانى ، على سمت الباب الشرقى ، وحفر فى داخله بئراً تكون خزانة له ، ولم يجعل عليه سقفاً ، ولا وضع على بابيه أبواباً تفتح وتغلق .

ويعلق أحد الكتاب (١) على حفر إبراهيم هذه البئر لتكون خزانة للكعبة فيقول : وقد ظهر حرص إبراهيم فى البناء وقصده إلى أن يكون البيت معبداً لله فحسب حساب النذور فحفر فى بطن البيت على يمين من دخله حفرة تكون خزانة للبيت يوضع فيها ما يهدى إلى البيت .

خلد القرآن الكريم بناء الكعبة . ففى سورة آل عمران : (إن أول بيت وضع للناس ، للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) .

إبراهيم يؤذن بالحج إلى الكعبة :

بعد الفراغ من بناء الكعبة ، أمر الله عز وجل إبراهيم أن يؤذن فى الناس بالحج ، كما جاء فى الآية الكريمة : (وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) . وروى الطبرى (٢) عن ابن عباس أن إبراهيم قال : يارب وما يبلغ صوتى . فقال عز وجل : أذن وعلى البلاغ . فنادى إبراهيم : يا أيها الناس كتب عليكم الحج إلى

(١) لطفى جمعة : ثورة الإسلام ص ٥٩ .
(٢) الطبرى ج ١ ص ١٨٢ .

البيت العتيق ، فسمعه ما بين السماء والأرض .

وروى الطبرى[١] أيضاً أن عبد الله بن الزبير سأل عبيد بن عمير الليثى عما بلغه عن دعوة إبراهيم الناس إلى الحج ، فقال : « بلغنى أنه لما رفع هو وإسماعيل قواعد البيت وانتهى إلى ما أراد الله من ذلك ، وحضر الحج ، استقبل اليمن فدعا إلى الله وإلى حج بيته ، فأجيب أن لبيك اللهم لبيك ، ثم إلى المغرب فدعا إلى الله وإلى حج بيته فأجيب أن لبيك اللهم لبيك » .

وروى الطبرى[٢] أيضاً أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « أتى جبرائيل إبراهيم يوم التروية فراح به إلى منى فصلى به الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة والفجر بمنى ، ثم غدا به إلى عرفات فأنزله الأراك ، أو حيث ينزل الناس ، فصلى به الصلاتين جميعاً ، الظهر والعصر ، ثم وقف به حتى إذا كان كأعجل ما يصلى أحد من الناس المغرب أفاض حتى أتى به جمعاً فصلى به الصلاتين جميعاً المغرب والعشاء ، ثم أقام حتى إذا كان كأعجل ما يصلى أحد من الناس الفجر صلى به ، ثم وقف حتى إذا كان كأبطأ ما يصلى أحد من المسلمين الفجر أفاض به إلى منى ، فرمى الجمرة ثم ذبح وحلق ، ثم أفاض إلى البيت ، ثم أوحى الله عز وجل إلى محمد صلى الله عليه وسلم : (أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) » .

وبعد بناء الكعبة ، عاد إبراهيم إلى بلاد الشام ، وترك وراءه ابنه إسماعيل ، وقد أصبح رجلا ، وخليفة أبيه فى أمانته وملته الحنيفية . ثم كان تطور مدينة مكة ، وقد قامت فى واد رملى شديد الضيق ، حتى ليبلغ

---

(١) الطبرى ج ١ ص ١٨٢ .

(٢) الطبرى ج١ ص ١٨٤ .

أقصى اتساع منه نحو سبعمائة خطوة ، وأما أضيق مكان فيه فلا يزيد على مائة خطوة ، تكتنفه جبال عارية مقفرة يتراوح ارتفاعها بين مائتى قدم وخمسمائة قدم .

٣ ــ الكعبة بعد إسماعيل

تقديس العرب والهنود والفرس والصابئة للكعبة :

كان العرب فى بداية الأمر يقدسون الكعبة باعتبارها بيت الله الحرام الذى بناه إبراهيم وابنه إسماعيل بأمر من الله عز وجل . وامتد تقديس العرب للكعبة إلى تقديس مكة والمناطق المجاورة لها ، حتى أصبحت الأراضى الممتدة حولها إلى عدة فراسخ حراماً لا يجوز فيها الاعتداء على إنسان أو حيوان .

روى ابن الكلبى [١] : « أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم ، تعظيما للكعبة ، وصبابة بمكة ، فحيثما حلوا وضعوه ، وطافوا به كطوافهم بالكعبة تيمناً منهم بها ، وصبابة بالحرم وحبا له ، وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتمرون على إرث أبيهم إسماعيل من تعظيم الكعبة والحج والاعتمار » .

وكان العرب يرحلون من كل مكان فى الجزيرة العربية فى موسم الحج من كل عام ، إلى مكة ، لتأدية فريضة الحج ، ولحضور الأسواق التجارية التى كانت تعقد دائماً فى مواسم الحج ، وتشهد نشاطاً اقتصادياً وثقافياً .

---

(١) ابن الكلبى : كتاب الأصنام .

بل امتد تقديس الكعبة إلى بعض الأمم الأخرى كالهنود والفرس . فقد كان الهنود يعتقدون أن روح « شبوه » أحد آلهتهم قد تقمصت فى الحجر الأسود حين زارهو وزوجته بلاد الحجاز ، ويسمون مكة (مكشيشا) أو (موكشيشا) أو (موكشيشانا) أى بيت شيشا أو شيشانا ، وهما من آلهتهم.

وكان الفرس أيضاً يقدسون الكعبة ويعتقدون أن روح (هرمز) حلت فيها ، ولذا كانوا يحجون إلى الكعبة . ويذكر المؤرخ المسعودى أن الفرس كانت تعتقد أنها من ولد إبراهيم الخليل عليه السلام ، وقد كانت أسلافهم تقصد البيت الحرام وتطوف به تعظيماً لجدهم إبراهيم ، وكان آخر من حج منهم ساسان بن بابك . ويذكر ياقوت الحموى[1] أن بئر زمزم سميت بهذا الاسم لأن الفرس كانت تحج إليها فى الزمن الأول ، فزمزمت عليها ، والزمزمة صوت تخرجه الفرس من خياشيمها عند شرب الماء . وكان ساسان إذا أتى البيت طاف به وزمزم على هذه البئر ، وفى ذلك يقول الشاعر القديم :

زمزمت الفرس على زمزم ... وذاك فى سالفها الأقدم

وقد افتخر بعض شعراء الفرس بعد ظهور الإسلام ، بتقديسهم الكعبة وحجهم إليها ، فأنشد أحدهم :

وما زلنا نحج البيت قدما ... ونلقى بالأباطح آمنينا
وساسان بن بابك سار حتى ... أتى البيت العتيق بأصيدينا
وطاف به وزمزم عند بئر ... لإسماعيل تروى الشاربينا

وكانت الصابئة ، وهم عباد الكواكب من الفرس والكلدانيين يعدونها أحد البيوت السبعة المعظمة . وكان اليهود يحترمون الكعبة ويعبدون الله فيها على دين إبراهيم .

---

(١) معجم البلدان جـ ١ ص ١٤٩ .

الكعبة بعد إسماعيل :

كانت زوجة إسماعيل الثانية هى ابنة زعيم قبيلة جرهم مضاض بن عمرو ، وقد رزق منها اثنى عشر ولداً هم : نابت وقيدار ، وإدبيل ، ومبسم ، ومشمع ، ودوما ، ودوام ، ومسا ، وحداد ، وثيما ، ويطور ، ونافش [1] ثم مات وعمره ١٣٧ سنة ، ودفن فى المسجد الحرام فى الحجر حيال الموضع الذى كان فيه الحجر الأسود ، على مقربة من قبر أمه هاجر [2] .

وبعد وفاة إسماعيل ، قام بالإشراف على الكعبة ابنه نابت ، ثم انفرد بالإشراف عليها بعض زعماء جرهم الذين نجحوا فى التغلب على أولاد إسماعيل . تحدث ابن هشام فى سيرته عما حدث لأولاد إسماعيل وجرهم بعد ازدياد عددهم فقال : « ثم نشر الله ولد إسماعيل بمكة ، وأخوالهم من جرهم ، ولاة البيت والحكام بمكة ، لا ينازعهم ولد إسماعيل فى ذلك لخئولتهم وقرابتهم ، وإعظاماً للحرمة أن يكون بها بغى أو قتال . فلما ضاقت مكة على ولد إسماعيل انتشروا فى البلاد فلا يناوئون قوماً إلا أظهرهم الله عليهم بدينهم ، فوطئوهم » .

كان أول من تولى شئون الكعبة من جرهم ملكها الحارث بن مضاض ، وكان ينزل مكاناً على مشارف مكة يدعى « قيقعان » ، وكان كل من دخل مكة بتجارة أخذ عشرها . فى حين كان ملك العماليق يدعى السميدع ابن هوبر ، وكان ينزل فى أسفل مكة ، يستولى على أعشار التجارة التى تدخل إلى مكة من جهته ، وثار النزاع بين الملكين ، ونشب القتال فترة ثم جنحوا إلى السلم ، واتفقوا على أن يتولى العماليق الإشراف على الكعبة ،

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٤٩ .

(٢) الطبرى ج ١ ص ٢٢١ .

وظلوا يتولون ذلك حتى نجح الجرهميون فى استعادة نفوذهم ، وظلوا يشرفون على الكعبة ثلثمائة سنة ، وكان آخر ملوكهم الحارث بن مضاض الأصغر ، وزادوا فى بناء البيت ورفعته على ما كان عليه من بناء إبراهيم عليه السلام (١) .

ثم طغت قبيلة جرهم وتجبّرت ، وتهاونت فى المهمة الكبرى الموكولة إليهم ، فاستولوا على أموال الكعبة ونذورها ، وأساءوا إلى الحجاج ، وتعالت أصوات الحجاج بالشكوى والاحتجاج ، وكانت العناية الإلهية تحيط ببيت الله الحرام ، فعاقب المولى عز وجل جرهماً على طغيانها وتجبرها « فبعث الله على جرهم الرعاف والنمل وغير ذلك من الآفات ، فهلك كثير منهم » (٢) .

ونجح أولاد إسماعيل فى أن يجمعوا شملهم ويوحدوا صفوفهم ونجحوا فى التغلب على قبيلة جرهم ، وأخرجوهم من مكة ، فلحقوا بجهينة ، فأتاهم السيل فى بعض الليالى فذهب بهم ، وكان الموضع الذى يقيمون فيه يسمى « إضم » ، ووصف أمير جرهم ، الحارث بن مضاض الأصغر ما حلّ به وبقومه فأنشد (٣) :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ، ولم يسمر بمكة سامر
بل نحن كنا أهلها فأبادنا ... صروف الليالى والجدود العواثر
وكنا لإسماعيل صهراً ووصلة ... ولما تدر فيها علينا الدوائر
وكنا ولاة البيت من بعد نابت ... نطوف بذاك البيت والخير ظاهر
فبدّلنا ربى بها دار غربة ... بها الذئب يعوى والعدو المحاصر

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٥٠ .
(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٥٠ .
(٣) المصدر السابق .

ثم صارت ولاية الكعبة فى ولد إياد بن نزار بن معد ، ولكن قامت حروب عنيفة طويلة بين مضر وإياد ، انتهت بانتصار مضر ورحيل إياد عن مكة إلى بلاد العراق (١) .

ولاية خزاعة على الكعبة :

كانت قبيلة خزاعة تنزل تهامة ، حتى ثارت الحرب بين إياد ومضر ، ابنى نزار ، وشعرت إياد بضعفها وقرب هزيمتها ، فخلعت الحجر الأسود من مكانه ودفنته فى بعض المواضع . ورأت ذلك امرأة من خزاعة ، فأخبرت قومها ، فأعلموا مضراً أنهم يعلمون المكان الذى أخفت فيه إياد الحجر الأسود ، وأنهم يشترطون لإخبارهم بمكانه أن يعترفوا لهم بولاية أمور الكعبة ، ونزلت مضر على رأيهم ، وأصبح الإشراف على الكعبة منذ ذلك الحين لخزاعة (٢) .

يروى المؤرخون أن عمرو بن لحىّ الخزاعى هو الذى أدخل عبادة الأوثان فى مكة ، فيروون أنه لما ساد قومه فى مكة وأصبحت له الولاية على الكعبة ، رحل إلى مدينة البلقاء بالشام ليستشفى من مرض أصابه ، فرأى أهلها يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأوثان الذى أراكم تعبدون ؟ قالوا : هذه أصنام نعبدها نستنصرها فتنصرنا ، ونستسقى بها فنسقى . فقال : ألا تعطونى منها صنما ، فأسير به إلى أرض العرب عند بيت الله الذى تفد إليه العرب ؟ فأعطوه صنما ، يقال له هبل ، فقدم به مكة فوضعه عند الكعبة (٣) .

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٥١ .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٥٦ .

(٣) اليعقوبى ج ١ ص ٢١١ .

كان عمرو بن لحى ثمرة زواج خزاعة وجرهم ، فقد تمت مصاهرة بين القبيلتين ، فتزوج أمير من خزاعة بأميرة من جرهم ، فولد لهما عمرو ابن لحى الذى أصبح أميراً لمكة ، واتسع نفوذه إلى حد كبير ، ولم يبلغ هذا النفوذ فى العصر الجاهلى سوى قصى بن كلاب وعبد المطلب ، وخضعت كثير من القبائل العربية لطاعة عمرو .

وكان العرب بمكة وما حولها قد تهاونوا فى عقيدتهم الحنيفية ، دين التوحيد ، الذى دعا إليه إبراهيم وإسماعيل، وأراد عمرو أن يدعم سلطته ونفوذه بأن يبتدع عقيدة جديدة ، تحل محل الدين القديم . وقد رأى تساهل قومه فيه ، بعد تقادم الزمن ومرور السنوات العديدة . وكان عمرو كثيراً ما رحل إلى الدول المجاورة فى الشام والعراق ، واطلع على أحوالها ، وشاهد عقائدها الوثنية ، ورأى فيها وسيلة لإيجاد سند دنيوى مادّى يعتمد عليه فى تدعيم نفوذه السياسى .

ولذا تخلى عمرو عن الحنيفية دين إبراهيم وإسماعيل ، وأقام الأوثان عند الكعبة ، ونصب كبيرها هبل فى بطن الكعبة . وتعالت أصوات احتجاج من بعض العرب ، وخاصة عرب جرهم ، يحتجون على هذه البدعة الوثنية الجديدة التى ابتدعها زعيمهم ؛ فأنشد رجل من جرهم كان يتمسك بالدين الحنيفية (١) :

يا عمرو لا تظلم بمكـ ـه إنها بلد حرام
سائل بعاد أين هم وكذاك تخترم الأنام
وبنى العماليق الذ ين لهم بها كان السوام

ولما أسرف عمرو بن لحى فى نصب الأصنام حول الكعبة ، وأجبر العرب على عبادتها ، مما هدّد دين الحنيفية ، أنشد شحنة بن خلف

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٥٦ .

الجرهمي (١) :

يا عمرو ، إنك قد أحدثت آلهة شتى بمكة حول البيت أنصابا
وكان للبيت رب واحد أبداً فقد جعلت فى الناس أربابا
لتعرفن بأن الله فى مهل سيصطفى دونكم للبيت حجاجا

ولكن عمرو بن لحى نجح فى إخماد أصوات الاحتجاج ، بما كان يتمتع به من سلطة سياسية وعسكرية واقتصادية واسعة واستمرت قبيلة خزاعة تلى شئون الكعبة وتمارس الوثنية حوالى خمسة قرون .

نكسة الوثنية :

كانت دعوة إبراهيم هى الفتح الجديد فى تاريخ العقيدة . فلم يبدأ إبراهيم عقيدة التوحيد ، ولم يبدأ عقيدة البقاء ، ولكنه بدأ بالدعوة النبوية فاصطبغت العقائد بصبغتها ، حتى كأنها لم تسمع قط قبل ذلك فى عهد الكهانات والهياكل . وكان توحيد إبراهيم إيماناً بإله يعلو على ملوك الأرض ونجوم السماء ، ويتساوى عنده الخلق جميعاً .

وقد أصابت النكسة كل عقيدة نادى بها الخليل قومه فى عصره ، فانقلبوا إلى عبادة الأصنام وجهلوا سرّ الفداء ، وسرّ البقاء ، ولكن البداءة قد بدئت وسارت فى طريقها ، ولولا أنها بدئت لما تبين أحد موضع النكسة فيها بعد ذلك (١) .

عفا الزمان على دين إبراهيم الحنيف ، وعلى تقديس الكعبة ؛ وبدأ عصر الوثنية وتقديس الأصنام . ويذكر بعض المؤرخين أنه لما كانت بعض الأحجار البركانية يخال الناس أنها ساقطة من السماء ؛ منحدرة

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٥٦ .
(٢) العقاد : أبو الأنبياء ص ٢٤١ .

لذلك من بعض النجوم ، فقد اتخذت أوّل أمرها مظاهر لهذه الآلهة الرفيقة وقدست بهذه الصفة ، ثم قدست لذاتها ، ثم كانت عبادة الأحجار ، حتى كان العربى لا يكفيه أن يعبد الحجر الأسود بالكعبة ، بل كان يأخذ معه فى أسفاره أى حجر من أحجار الكعبة يصلى إليه ويستأذنه فى الإقامة والسفر ويؤدى إليه كل ما يؤدى للنجوم وخالق النجوم من طقوس العبادة ، ومن ثمّ استقرت الوثنية وقدست التماثيل وقدم العرب لها القرابين [1] .

قامت عبادة الأوثان فى الجزيرة العربية على فكرة عبادة مظاهر الطبيعة كالأرض والسماء والنجوم والكواكب . ولما كان العرب يعتقدون بوقوعهم فى حياتهم تحت تأثيرها ، لذلك حرصوا على إرضائها اجتلاباً لخيرها . فاتخذوا لها أشكالا مختلفة من بيوت وأشجار وأحجار مصوّرة تمثل إنساناً أو حيواناً ، وأخرى غير مصورة ، وصاروا ينظرون إليها على أنها رمز للقوة الطبيعية ، ومن ثم أصبحت معبودات لهم . وكانوا يطوفون حولها ويتاجرون عندها ، ويعتبرون المكان الذى فيه المعبود حرماً ، يحرم الإتيان فيه بأشياء معينة [2] .

وصف المؤرخ المسعودى [3] مطالع الوثنية فى مكة فقال : « ووليت خزاعة أمر البيت ، وكان أول من وليه منهم عمرو بن لحى ، فغير دين إبراهيم وبدّله ، وبعث العرب على عبادة التماثيل ، حين خرج إلى الشام ورأى قوماً يعبدون الأصنام ، فأعطوه منها صنما فنصبه على الكعبة ، وقويت خزاعة ، وعمّ الناس ظلم عمرو بن لحى » .

و « التماثيل » و « الأصنام » كلمتان مترادفتان ، وهى أحجار ومعادن

---

(١) هيكل : حياة محمد ص ٥٤ .

(٢) جمال سرور : قيام الدولة العربية ص ٤٨ .

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٥٦ .

كانت تنحت نحتاً ، وتصنع صناعة على أشكال وصور ، وهذا يعنى أن العرب كانوا يطلقون اسم الأصنام أو التماثيل على ما هو مخلق من الأوثان وأنهم كانوا يعرفون مسميات اللفظين. وقال البعض إن الأنصاب هى الأحجار المنصوبة للعبادة ، كما قال بعضهم إنها مرادفة للأصنام. ومن المرجح أنها تعنى المنصوبة للعبادة والطقوس سواء كانت مخلقة أم غير مخلقة.

لم يكن العرب ليكتفوا بالأصنام الكبرى يقدمون إليها صلواتهم وقرابينهم . بل كان أكثرهم يتخذ له صنما أو نصبا فى بيته ، يطوف به حين خروجه وساعة أوبته ، ويأخذه معه عند سفره إذا أذن له هذا الصنم فى السفر . وهذه الأصنام جميعاً سواء منها ما كان بالكعبة أم حولها وما كان فى مختلف جهات بلاد العرب وبين مختلف قبائلها ، كانت تعتبر الوسيط بين عبادها وبين الإله الأكبر. وكانت العرب لذلك تعتبر عبادتها إياها زلفى تتقرّب بها إلى الله ، وإن كانت قد نسيت عبادة الله لعبادتها هذه الأصنام[1] .

وكان العرب يدركون أن هذه الأوثان لا تعتمد على رسالة أو نبوّة ، ولكنهم اعتبروها ديانة تقليدية وراثية وجزءاً من عاداتهم المتوارثة ، فكانوا يقولون عنها إنها ديانة الآباء والأجداد . قال الله تعالى فى سورة الأنبياء : (إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين) .

وكان لطبيعة بلاد العرب تأثير كبير فى العادات التى ورثها العرب عن آبائهم وأجدادهم ، وتمسكوا بها طوال تاريخهم الجاهلى ، ولم يجهدوا أنفسهم لمعرفة حقيقتها .

---

(١) هيكل : حياة محمد ص ٤٤ .

٤ ـ الكعبة فى العصر القرشى

ولاية قريش الكعبة :

ظلت خزاعة تتولى شئون الكعبة ، حتى برزت قبيلة قريش واستطاعت أن تجمع شملها وتوحد صفوفها . وقريش هم ولد النضر بن كنانة ، وقد سموا قريشاً حين جمعهم قصى بن كلاب إلى الحرم بعد أن نفى خزاعة . من القرش وهو التجمع .

وقد أجمع المؤرخون على أن قريشاً ، الذين منهم قصى بن كلاب ، الجد الرابع للرسول صلى الله عليه وسلم ، هم من ولد كنانة ، الذى يرجع نسبه إلى عدنان ، وينتهى إلى إسماعيل عليه السلام . وإلى ذلك يشير الحديث النبوى الكريم : « اختار الله من إسماعيل كنانة ، واختار قريشاً من كنانة ، واختار بنى هاشم من قريش ، واختارنى من بنى هاشم ، فأنا خيار من خيار » .

كان قصى رجلا حازماً طموحاً ، تزوج من حبى ابنة حليل بن حبشية زعيم خزاعة ، وكان يتولى أمر الكعبة ومكة ، وبدأ قصى يعمل على أن يكون الرجل الأول فى مكة ، فيروى الطبرى[1] : « فرأى قصى أنه أولى بالكعبة وأمر مكة من خزاعة وبنى بكر ، وأن قريشاً فرعة إسماعيل ابن إبراهيم وصريح ولده ، فكلم رجالا من قريش وبنى كنانة ودعاهم إلى إخراج خزاعة وبنى بكر من مكة ، فلما قبلوا منه ما دعاهم إليه وبايعوه عليه كتب إلى أخيه من أمه رزاح بن ربيعة بن حرام وهو ببلاد

(١) الطبرى ج ٢ ص ١٥ .

قومه يدعوه إلى نصرته والقيام معه » .

واستجاب رزاح لدعوة أخيه وقدم مع قومه إلى مكة. ودار قتال عنيف بين الفريقين ، ثم تداعوا إلى الصلح ، وإلى تحكيم رجل من العرب ، فقضى هذا الرجل بأن قصياً أولى بالكعبة وأمر مكة من خزاعة « وتملك قصى على قومه وأهل مكة فملكوه ، فكان قصى أول ولد كعب بن لؤى أصبح ملكاً أطاع له به قومه ، فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء فحاز شرف مكة كله ، وقطع أرباعاً بين قومه ، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التى أصبحوا عليها »[1] .

وهكذا بدأت مكة تأخذ شكلها وطابعها . ويذهب بعض المؤرخين إلى أن مكة لم يكن بها بناء غير الكعبة إلى أن تولى قصى أمرها . ويعللون ذلك بأن خزاعة وجرهماً قبلها لم يريدوا أن يكون إلى جوار بيت الله بيت غيره ، وأنهم لم يكونوا يقيمون ليلهم بالحرم ، بل يذهبون إلى الحل . فلما تم الأمر لقصى فى مكة جمع قريشاً وأمرهم أن يبنوا دورهم فى مكة ، وابتدأ هو فبنى دار الندوة وفيها « كانت قريش تقضى أمورها »[2] وكانت قريش أكثر قدرة من خزاعة على الإشراف على الكعبة وحكم مكة ، واضطرت خزاعة إلى أن تقنع بالمرتبة الثانوية فى مكة .

لم تعرف القبائل العربية فى بلاد العرب الرئاسة المطلقة كما عرفتها قريش ، وإنما كان فى كل قبيلة نفر من « السادة » يعترف أفراد القبيلة لهم بسلطان أدبى ، ولم تكن واجبات السيد أو حقوقه محددة . أما فى مكة فقدأخذت السيادة معنى حقيقياً بسبب الاستقرار وانتظام أمور الجماعة ووجود الكعبة وضرورة وجود من يتولى شئونها ، ومن هنا كان تنافس

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ١٨ .

(٢) الطبرى ج ٢ ص ١٨ .

القبائل وشيوخها على سدانة الكعبة حتى انتهت إلى قريش على يد زعيمهما قصى بن كلاب [١] .

اتخذت قريش من الأرض المجاورة للكعبة حرماً أولوه احترامهم واعتبروه مقدساً وحرّموا فيه القتال ، وأخذوا على عاتقهم حمايته ، فأمنوا بذلك أذى غيرهم من القبائل . وكان لمكة مركز خاص لوجود الكعبة بها ، كما ارتفع شأن قريش بين سائر القبائل العربية . وعملت قريش على توثيق الصلات الطيبة بين القبائل التى تفد كل عام إلى الكعبة للحج أو للتجارة . وزاد مجد قريش أنها فى مكة ، وأن الكعبة فى مكة .

أثر الكعبة فى تطور مكة وحضارتها :

كتب الله لمكة بعد بناء الكعبة المجد والخلود ، فقد أصبحت مكة موطن الكعبة ومقصد الحجاج . وبدأ ظهور مكة كمدينة كبيرة فى عهد قصى بن كلاب ، فقد نجح فى تنظيم مكة ، والسمو بقبيلة قريش .

وكانت مكة مدينة كبيرة مستطيلة ذات شعاب واسعة ، لها مبدأ ونهايتان ، مبدؤها المصلاة ، ومنتهاها من ناحية جدة « الشبيكة » ، ومن ناحية اليمن « بازان » ، وشكلها كالسلحفاة الرابضة ، وبها جبلان اسمهما الأحبشان ، وهما جبل أبى قبيس وهو المشرف على الصفا والجبل الأحمر أو الأعرف ، وهو المشرف على قعقعان . وكان المسجد الحرام يقع فى وسط مكة بين هذين الجبلين ، كما تقع الكعبة وسط المسجد الحرام . وكانت منازل أهل مكة تحيط بدارة الكعبة وتقترب منها أو تبتعد عنها تبعاً لما لكل أسرة وفخذ من جليل مقام ، فكان القرشيون أقربهم إليها داراً وأكثرهم بها اتصالا ، كما كانت لهم سدانتها وسقاية زمزم . وفيما وراء

(١) انظر الحاشية بكتاب تاريخ التمدن ج ١ ص ٣٦ .

منازل قريش كانت تجيء منازل القبائل التي تليها في الأهمية ، ثم تلي هذه منازل من دونهم . أما القرشيون داخل مكة فهم بنو كعب بن لؤى ، وعلى مقربة من مكة يعيش بنو عامر بن لؤى .

ولم تكن مكة تستطيع أن تنافس مدن الجزيرة العربية فى خيراتها أو ثرائها ، فقد كانت تقع فى أجدب بقاع الجزيرة العربية ، ولكنها كانت تستطيع أن تفخر عليها بوجود الكعبة المقدسة بين ظهرانيها .

وأقبلت القبائل على سكنى مدينة مكة ، فهى مدينة عريقة فى قدسيتها ، إذ هى موطن الكعبة ، وهى سوق زاخرة بأنواع التجارة المختلفة التى تفد عليها من أرجاء العالم . فكانت هذه القبائل تنزل مكة ، وتبنى بيوتها من الحجارة والآجر ، وبرغم فقر مكة فى الماء والإنتاج الزراعى ، كانت مكانتها الدينية تعوّض هذا النقص .

أصبحت مكة مركزاً للحياة الدينية فى الجزيرة العربية بفضل وجود الكعبة بها ، كما أصبحت مركزاً للنشاط الاقتصادى وملتقى التجارة العالمية ، وأصبحت مكة تعج بالحجاج والتجار من مختلف الأجناس والألوان والأديان ، وتدفقت على مكة الثروات وألوان من الثقافة والنظم الاجتماعية .

نهجت قريش نهجاً ديموقراطياً ، وكانت دار الندوة المقامة على مقربة من الكعبة تشبه البرلمانات المعاصرة ، تتشاور قريش فيها فى مهام أمورها . ولم تشهد مكة حروباً قبلية مثل الحروب التى شهدتها أرجاء الجزيرة العربية فى تاريخها الجاهلى . فقد عملت قريش على تحقيق السلام فى مكة ، وحفظت التوازن بين القبائل المختلفة ، ولم تقحم نفسها فى الصراع القبلى . كما اهتمت بسوق عكاظ التى كانت تنعقد فى موسم الحج ، وجعلتها قريش مسرحاً للأدب والشعر ، تتسابق فيها القبائل إلى إظهار نوابغها من الشعراء والخطباء ، فيتناشدون ويتحاجون ويفتخرون ،

ومن كان له أسير سعى إلى فدائه . وكان لعكاظ فى أيام الموسم رجل يولونه الحكومة ، أى الفصل فى ما يقع من خلاف . ومتى فرغ الناس من سوق عكاظ ، وقفوا فى عرفة ، ثم يأتون مكة فيقضون مناسك الحج ويعودون إلى موطنهم فى سلام .

الأوثان عند الكعبة :

كانت الكعبة مصدر رزق أهل مكة ، ولولاها لما استطاعوا المقام فى ذلك الوادى الجدب . ولما كانت أوثان الكعبة هى التى تجذب القبائل العربية إلى مكة ، ولذا اهتم القرشيون بشئونها ، ويسروا قدوم الحجاج إليها ، وأنشأوا فى مكة أماكن للسقاية ، ووفروا الطعام ، وجعلوا المنطقة المجاورة للكعبة حرماً لا يجوز فيه القتال ، وتولى وجوه قريش سقاية ورفادة الحجاج ، ونصبت قريش أصنام جميع القبائل عند الكعبة ، فكان لكل قبيلة أوثانها ، تقدم فى الموسم لزيارتها وتقديم القرابين لها ، وزاد عدد الأصنام عند الكعبة على ثلثمائة صنم ، وفيها الكبير والصغير ، ومنها ما هو على هيئة الآدميين أو على هيئة بعض الحيوانات أو النباتات [1] .

ونجح سدنة الكعبة فى الاستفادة من هذه الأصنام ، وجعلوها تدر عليهم أرباحاً طائلة ، واقتبسوا فى ذلك بعض النظم الوثنية التى كانت سائدة حينئذ فى مصر واليونان والهند وبابل ، فكان كل من يأتى ليستقسم بالأزلام أو ليستشير الأوثان يدفع رسوماً محددة ، كما كان الوافدون يشترون حاجتهم من الطعام والماء الملابس إلى جانب نفقات إقامتهم ، مما أدى إلى رواج تجارى فى مكة . ووفر أهل مكة للحجاج والتجار الحماية والأمن والسلام .

---

(١) جورجى زيدان : تاريخ التمدن حـ ١ ص ٣٧ .

قدست بعض القبائل أصناماً معينة ، عرفت بالأصنام الخاصة لانفرادهم بعبادتها ، منها : ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر . وكان يعبد هذه الأصنام الخمسة قوم نوح ، وقد جاء ذكرها فى القرآن الكريم : (قال نوح ربّ إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً ومكروا مكراً كباراً وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودّاً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالا) [١] .

وكان هناك أصنام عامة تشترك معظم القبائل فى تقديسها ، وأشهرها : اللات والعزى ومناة . وقد تحدث القرآن الكريم عنها فى هذه الآية الكريمة : (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذاً قسمة ضيزى) [٢] .

أما اللات ، فهى صخرة مربعة بالطائف وعليها بناء ولها حىّ وحرم يقصده العرب ويقدمون لها الذبائح ، وكان حجابها من بنى مغيث من ثقيف . وكان الثقفيون يحاولون أن ينافسوا باللات كعبة قريش بمكة . أما العزّى ، فهى شجرة بوادى نخلة إلى الشرق من مكة ، وكانت من أعظم الأصنام عند القريشيين ، فكانوا يزورونها ويقدمون لها الذبائح ، كما خصصوا لها موضعاً على مثال حرم الكعبة ، فقد كانت الكعبة هى المثل الأعلى ، وبلغ من تعظيم العرب وقريش أن كانوا يسمون أبناءهم عبد العزى [٣] . أما « مناة » فهى حجر أسود أقيم له معبد فى قديد على الطريق بين مكة ويثرب ، وهى إلهة القضاء ولا سيما قضاء الموت .

أما أصنام قريش فكان « هبل » أعظمها ، وهو صنم على صورة إنسان ، وكان مصنوعاً من العقيق ، وقد كسرت ذراعه فأبدله القرشيون

---

(١) سورة نوح آية ٢١ .
(٢) سورة النجم آية ١٩ .
(٣) ابن الكلبى : الأصنام ص ١٣ — ١٥ .

بذراع من ذهب . ومن أصنام قريش « أساف» و « نائلة » ، وقد وضع القرشيون كل واحد منهما على ركن من أركان بيت الله الحرام ، فكان الطائف إذا طاف بدأ بأساف فقبله وختم طوافه به .

قال المسعودى (١) عن أساف ونائلة : « و بغت جرهم فى الحرم وطغت حتى فسق رجل منهم فى الحرم بامرأة ، وكان الرجل يدعى بإساف والمرأة نائلة ، فمسخهما الله عز وجل حجرين صيرا بعد ذلك وثنين وعبدا تقرباً بهما إلى الله تعالى ، وقيل بل هما حجران نحتا ومثلا بمن ذكرنا وسميا بأسمائهما » .

كذلك نصب القرشيون على جبل الصفا صنما يقال له «مجاور الريح » كما نصبوا « مطعم الطير » على جبل المروة . فكانت العرب إذا حجت إلى الكعبة سألت قريشاً عن تلك الأصنام ، فيقولون لهم : نعبدها لتقربنا إلى الله زلفى .

انتشرت الأصنام فى مكة وسائر مدن الجزيرة العربية ، على شكل بيوت وأشجار مصورة وغير مصورة ، حتى قيل إنه كان حول الكعبة ثلثمائة وستون صنما . فقد رأت قريش أن تنتفع من قدوم القبائل العربية فى موسم الحج ، فوضعت أصنام القبائل الشهيرة حول الكعبة ، حتى إذا أتوا مكة و زاروا الحرم وجدوا معبوداتهم فأولوها احترامهم وتقديسهم .

ولم يكن العرب ليكتفوا بالأصنام الكبرى يقدمون إليها صلواتهم وقرابينهم . بل كان أكثرهم يتخذ له صنما أو نصباً فى بيته ، يطوف به حين خروجه وساعة أوبته ، واعتبروا الأوثان وسطاء وشفعاء لهم عند ربهم .

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٥٠ .

فلسفة الوثنية العربية :

كان بعض العرب ضعيفي الإيمان بهذه الأوثان ، ويعلمون تماماً أنها لا تضر ولا تنفع ، ولكن لم يكن في استطاعتهم أن يحدثوا انقلاباً أو تغييراً ، فقد مضت أجيال والأوثان قائمة عند الكعبة . واشتهر أمرها بين العرب جميعاً ، وأصبحت عبادة تقليدية وراثية .

والبدوى العربي لا يكترث كثيراً للدوافع الروحية ، بل كان يقف منها موقفاً سلبياً ، وكان في ممارسته للطقوس الدينية الوثنية إنما كان يحترم تقاليدها المتوارثة .

وكان سائر العرب يعتبرون هذه الأوثان وسطاء بينهم وبين الله ، أو شفعاء لهم لديه . فإن أذهان كثير من العرب في العصر الجاهلي ما كانت لتسيغ أن دعاءهم إلى الله عز وجل إذا وجه منهم إليه مباشرة يكون مقبولا . وأنه لا بدّ لهم من وسطاء يتوسلون بهم إلى الله . ويقومون نحوهم ببعض العبادات . وأصبحت فكرة الشفاعة جزءاً رئيسياً من عقائدهم وعباداتهم ، وتطور الأمر بهم حتى آمنوا بقدرة الشفعاء على النفع والضرر .

ويرى المؤرخ العربي المعاصر محمد دروزة[1] أن العرب قبل الإسلام ، أو فريقاً منهم ، كانوا يعترفون بوجود الله كإله أعظم ، خالق السموات والأرض وما فيهما ، وأنه مدبر الكون وربه ، وأنه هو الذى يسيطر على قوى الطبيعة ، ويحيي ويميت ويرزق الناس ويرسل الأنبياء . وكان فريق منهم يعتقد أن ما هم عليه من عقائد وتقاليد وطقوس وتحليل وتحريم ، إنما هو متصل بأوامر الله ومستمد من إلهامه ووحيه ، وأنه راض عنهم وعن ما اتخذوه من شركاء وشفعاء . أى أنهم يعترفون بالله مع

---

(١) عصر النبي عليه السلام وبيئته ص ٣٩٦ .

اتخاذهم شركاء وشفعاء ، وإشراكهم معه عز وجل فى العبادة والدعاء والاتجاه .

وهذه الأفكار تمثل حلقة وسطى بين تفكير دينى قديم ، وتفكير دينى جديد . فقد كان العرب فى أطوارهم الأولى وثنيين ، يعبدون المادة والقوى الطبيعية ، ويؤمنون بوجود أرواح خفية وشريرة ، ولم يكونوا قد تصوروا وجود الإله الأعظم بالصفات الواجبة له أو ما يقرب منها ، ثم أخذوا يسمعون ذكره وصفاته ، وأخذت معانيه تدخل فى أذهانهم شيئاً فشيئاً ، حتى دخلوا فى طورهم الأخير الذى كانوا عليه عند نزول القرآن الكريم ، وهو التسليم بوجود إله أعظم له ملك السموات والأرض ، بيده الأكوان وتسخير القوى الطبيعية ، وهو ملجأ الناس ، ومصدر الخير . غير أنهم لم يكونوا بعد قد وصلوا إلى إساغة فهم إله واحد غير مادى وغير مرئى فهماً تصورياً مجرداً عن الرموز والشفعاء والشركاء والوسطاء إساغة تامة .

فكانوا مع اعترافهم بالله ، لم يروا غنى عن معبوداتهم الأولى التى كانوا بها وبرموزها أكثر اتصالا ومشاهدة فى العبادة والاتجاه وطلب العون ، والاستشفاع والاستعداء على قوى الشر والأذى .

ولم ينفرد العرب فى العصر الجاهلى بعبادة الأوثان ، فقد كان كثير من الأمم المعاصرة لهم مغرقة فى الوثنية . والوثنية هى الطور الذى تمرّ به كل أمة فى بداوتها ، قبل أن تنتقل إلى التوحيد وعبادة إله واحد ، واختلفت صور الوثنية باختلاف البيئات والأزمنة . وعاش معظم العرب فى جزيرتهم منعزلين عن أجزاء العالم الذين ارتقى أهلها من الوثنية إلى أديان التوحيد .

تبابعة اليمن يحاولون هدم الكعبة :

اختص الله بلاد اليمن بالأمطار الوفيرة وخصوبة الأرض ، كما هيأ الظروف لإنتاج زراعى كبير ، أدّى إلى انتشار الحضارة وقيام دول زاهرة ، حتى عرفت هذه البلاد باسم « بلاد العرب السعيدة » ، ونجحت بلاد اليمن فى أن تستفيد من موقعها على طرق التجارة العالمية بين الإقليم الموسمى فى الجنوب ، وإقليم البحر المتوسط فى الشمال .

ونجح أهل مكة أيضاً فى الاستفادة من وجود الكعبة فى موطنهم ، فأصبحت مقصد آلاف من الحجاج والتجار . وقامت الأسواق العامرة حول مكة ، وخشى أهل اليمن على تجارتهم ونشاطهم الاقتصادى ، وشعروا بمنافسة أهل مكة ، ورأى تبابعة اليمن أن يعملوا على الخلاص من الكعبة ، إما بهدمها أو الاستحواذ عليها ، ولكنهم كانوا يترددون كثيراً فى الإقدام على هذه المغامرة ، لمنزلة الكعبة الكبرى بين سائر القبائل العربية ، وما سيجره ذلك على التبابعة من لوم وسخط ، أو مقاومة حربية .

ونقل قوم من هذيل من بنى لحيان إلى تبع باليمن أن بمكة بيتاً تعظمه العرب جميعاً وتفد إليه ، وتنحر عنه ، وتحج إليه ، وأن قريشاً تتولى أموره ، وقد ارتفع شأنها وعظم ذكرها نتيجة ولايتها الكعبة ، وأخذوا يحرضونه على هدم الكعبة وبناء بيت آخر مماثل له فى اليمن فقالوا إنه أولى « أن يكون ذلك البيت وشرفه وذكره لك ، فلو سرت إليه وخربته وبنيت عندك بيتاً ثم صرفت الحاج إليه كنت أحق به منهم » .

وخرج تبع من اليمن قاصداً مكة ليهدم الكعبة ، ولكنه حاد عن عزمه ، وتأثر بقدسية البيت العتيق فكساه ونحر عنده . ويعلل المؤرخون هذا العدول من تبع بهبوب رياح وعواصف عنيفة أطاحت بخيام الجيش

اليمنى ، ورأى تبع أن ذلك من مظاهر سخط الله عليه فخشى العواقب ، بل رأى أن يعاقب بنى هذيل الذين أشاروا عليه بهدم الكعبة فقتلهم .

وكان تبع أول من كسا الكعبة كسوة كاملة ، ويروى العمرى[1] أنه رأى فى نومه أنه يكسوها ، فحقق رؤياه ، وكساها بالملاء والوصائل ، وهى ثياب مصنوعة فى اليمن . كما جعل تبع للكعبة باباً يغلق بضبة فارسية .

الأحباش والكعبة :

عجز الفرس والروم عن بسط نفوذهم السياسى على بلاد الحجاز نتيجة لظروفها الجغرافية وقسوة طبيعتها ، فاتجهوا نحو بلاد اليمن التى اشتهرت بأمطارها وخصوبتها وثروتها الاقتصادية . وأصبحت الدولة العربية الحميرية باليمن موضع تنافس بين الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية . ورأى الروم أن ينشروا المسيحية لتمهد لنفوذهم السياسى ، واعتنق بعض أهل اليمن المسيحية وألفوا جالية مسيحية قوية النفوذ فى مدينة نجران . ورأى الفرس أن يعتمدوا على يهود اليمن فى مقاومة النفوذ الرومانى المتزايد .

وحدث أن اعتنق الملك الحميرى ذو نواس الدين اليهودى ، وأخذ يضطهد المسيحيين واعتبرهم عملاء سياسيين للدولة الرومانية ، وهاجم مدينة نجران ، وخير المسيحيين بين اعتناق اليهودية أو القتل ، فاختاروا الاستشهاد من أجل عقيدتهم ، فقتلهم حرقاً فى الأخاديد .

وثارت ثائرة الإمبراطور الرومانى جستن الأول ، إذ كان يعتبر نفسه حامى المسيحيين فى أرجاء العالم ، ورأى تأديب هذا الملك . ولما كانت الدولة الرومانية بعيدة عن بلاد اليمن ، فقد طلب من حليفه نجاشى الحبشة غزو اليمن وعقاب ذى نواس . واستجاب النجاشى لنداء الإمبراطور ،

---

(١) مسالك الأبصار ج ١ ص ١٠١ .



وبعث جيشاً حبشياً كثيفاً بقيادة أرياط ، قضى على الدولة الحميرية وقتل الملك ذا نواس ، وبدأ الاحتلال الحبشي لبلاد اليمن .

تولى أبرهة حكم اليمن بعد مصرع أرياط ، وبدأ يعمل على نشر المسيحية فى أرجاء اليمن ، وشيد فى عاصمته صنعاء كنيسة كبرى فخمة ، وأمده الإمبراطور الرومانى بالعمال ومواد البناء . وأراد أبرهة أن ينافس بكنيسته كعبة مكة ويجتذب إليها الحجاج العرب ، فتعود عليه الفوائد المادية التى كانت تجنيها قريش ، ولكن جهود أبرهة لم تلق نجاحاً كبيراً ، فقد كانت للوثنية جذور طويلة ، وقد تأصلت فى عقول العرب ونفوسهم وأصبح من العسير محوها . كما كان أبرهة يمثل فى أنظار العرب الاستعمار الحبشى الرومانى ، ولذا انصرفوا عن كنيسته .

استأذن أبرهة نجاشى الحبشة فى العمل على اجتذاب الحجاج العرب إلى كنيسته بصنعاء بدلا من حجهم إلى كعبة مكة ، وأن يحول تجارة قريش إلى مكة ، وجاء فى رسالة أبرهة إلى النجاشى : « بنيت لك بصنعاء بيتاً لم تبن العرب ولا العجم مثله ، ولن أنتهى حتى أصرف حاج العرب إليه ويتركوا الحج إلى بيتهم » . وغضب العرب ، فخرج رجل من بنى مالك بن كنانة إلى صنعاء ، وعبث بأثاث الكنيسة وانتهك حرمتها . وثارت ثائرة أبرهة ، وأقسم على أن يهدم الكعبة ، ويرغم العرب على الحج إلى كنيسته « وسمعت بذلك العرب ، فأعظموه وقطعوا به ، ورأوا جهاده حقاً عليهم حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة ، بيت الله الحرام »[1] .

الغزو الحبشى للكعبة :

عمل أبرهة على وضع قسمه موضع التنفيذ ، فخرج من عاصمته

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٤٥ .

صنعاء على رأس جيش حبشى كبير ، تتقدمه الأفيال ، وقد امتطى ظهر فيل ضخم . وحاولت بعض القبائل العربية اعتراض طريق الجيش وصدّه عن مكة المدينة المقدسة ، وكعبتهم المعظمة ، ولكنها عجزت عن ذلك ، فقد حشد أبرهة عدداً ضخماً من الجند وزودهم بالعتاد والمؤمن التى جلبها من بلاد الحبشة .

توقف الجيش الحبشى عند مدينة الطائف ، وهى على مقربة من مكة ، وكان يتولى شئونها قبيلة ثقيف العربية . وكانت تحسد قريشاً وتشعر بالغيرة منها لما حازته من مجد وسؤدد ، وما تجنيه من أرباح طائلة نتيجة قدوم الحجاج والتجار سنوياً إلى مكة . وكانت قوافل قريش التجارية تنافس قوافل ثقيف ، فلا عجب أن تمنت ثقيف زوال مجد قريش ، ولذا أبدت ارتياحها لقدوم الجيش الحبشى وتمنت نجاحه فى مهمته التى خرج من اليمن من أجلها ، ألا وهى هدم الكعبة . وكانت ثقيف قد حاولت أن تنافس كعبة مكة ، فبنت فى الطائف بيت اللات وحاولت عبثاً أن تجذب إليه الحجاج دون جدوى .

ولذا خرج زعماء ثقيف يرحبون بمقدم أبرهة ، ويحثونه على التقدم إلى مكة ويرشدونه إلى الطريق ، ويعرضون عليه خدماتهم ، فقالوا له : « أيها الملك ، إنما نحن عبيدك ، سامعون لك مطيعون ، ليس عندنا لك خلاف ، وليس بيتنا هذا البيت الذى تريد — أى بيت اللات — إنما تريد البيت الذى بمكة — أى الكعبة — ونحن نبعث معك من يدلك عليه »(١) .

عسكر الجيش الحبشى على مشارف مكة ، وبعث أبرهة بنفر من جنده استولوا على كثير من أموال وأنعام قريش ، فكان مما استولوا عليه

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٤٧ .

مائتى بعير لزعيم قريش ومكة حينئذ ، عبد المطلب بن هاشم ، جدّ الرسول صلى الله عليه وسلم . وكأن أبرهة يريد بذلك إرهاب قريش وأهل مكة . وثارت ثائرة أهالى مكة وأرادوا قتال الأحباش ، ولكنهم أدركوا استحالة ذلك لكثرة عدد الأحباش ووفرة أسلحتهم وعتادهم .

ركز أبرهة هدفه من الغزو فى هدم الكعبة ، فقد كانت مكة فقيرة من الناحية الاقتصادية مما لايحقق أطماع الغزاة . ولذا بعث أبرهة برسول إلى قريش وقال له : « سل عن سيد هذا البلد ، ثم قل له إن الملك يقول لكم إنى لم آت لحربكم ، إنما جئت لهدم البيت ، فإن لم تعرضوا دونه بحرب ، فلا حاجة لى بدمائكم ، فإن لم يرد حربى فأتنى به » .

وقاد أهل مكة هذا الرسول إلى زعيمهم عبد المطلب ، فنقل الرسول إليه حديث أبرهة ، فقال عبد المطلب : والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله وبيت خليله إبراهيم . وطلب الرسول من عبد المطلب أن يرافقه ليلتقى بأبرهة .

وتم اللقاء ، وسأل أبرهة عبد المطلب عن حاجته ، فأجاب : حاجتى إلى الملك أن يردّ علىّ مائتى بعير أصابها لى . وأبدى أبرهة تعجبه من هذا الطلب فقال : كنت قد أعجبتنى حين رأيتك ، ثم زهدت فيك حين كلمتنى ، أتكلمنى فى مائتى بعير قد أصبتها لك ، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه ؟ !

وكان عبد المطلب مؤمناً بأن الله سيحمى بيته الحرام ، فقال لأبرهة : إنى أنا رب الإبل وإن للبيت رباً سيمنعه . ولكن أبرهة أصرّ على تنفيذ ما قدم من أجله فقال : ما كان ليمتنع عنى : فقال عبد المطلب فى ثقة : أنت وذاك . وعرض عبد المطلب على أبرهة ثلث أموال إقليم تهامة ، وهو أخصب أقاليم الحجاز ، على أن يجلوا عن مكة ولا يهدم الكعبة ، ولكن أبرهة رفض العرض وأصرّ على هدم بيت الله الحرام .



ورأى عبد المطلب استحالة قتال الأحباش ، فطلب من أهل مكة أن يحتموا ببطون الأودية وقمم الجبال ، وكان عبد المطلب قد استرد المائتى بعير التى استولى الأحباش عليها ، فقدّمها هدياً للكعبة ، ووقف بباب الكعبة ينشد[١] :

يا رب لا أرجو لهم سواكا   يا رب فاصنع منهم حماكا
إن عدو البيت من عاداكا   فامنعهم أن يخربوا قراكا

ثم بدأ غزو الأحباش للكعبة ، وبرك الفيل (محمود) الذى كان يمتطيه أبرهة ، وبذل الأحباش جهودهم لينهضوه ، فكان ينهض ، حتى إذا وجهوه نحو مكة برك مرة أخرى ، وإذا وجهوه نحو الشام أو اليمن أسرع فى العدو[٢] .

وكانت العناية الإلهية تحيط بالكعبة ، فهى بيت الله الحرام ، وللبيت رب يحميه . وانتهى الغزو بمأساة تاريخية ، فروى ابن هشام فى سيرته[٣] أن الله عز وجل قد أرسل عليهم طيراً من البحر ، أمثال الخطاطيف والبلسان ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها ، حجر فى منقاره ، وحجران فى رجليه ، فى حجم الحمص والعدس ، وتوالت ملايين الأحجار حتى هلك الجيش . وروى المسعودى[٤] : « فأرسل الله عليهم الطير الأبابيل أشباه اليعاسيب ترميهم بحجارة من سجيل ، وهو طين خلط بحجارة ، خرجت من البحر ، مع كل طير ثلاثة أحجار ، فأهلكهم الله عز وجل » .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٢٨ .
(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤٦ .
(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٥٢ .
(٤) مروج الذهب ج ٢ ص ١٨٨ .

وذكر القرآن الكريم هذا الحدث التاريخى فى سورة الفيل : (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول) .

وانتهت المأساة بهلاك معظم الجند الأحباش ، وعاد أبرهة مع نفر قليل من جنده إلى اليمن ، فى فزع وخوف ، يروون ما حدث لهم ، وما لبث أن مات أبرهة بعد قليل بعد أن ظهر على جسمه بلاء عظيم .

ارتفع شأن قريش وزعيمها عبد المطلب بعد إخفاق هذا الغزو ، وقال العرب : « الله قاتل عنهم وكفاهم مئونة عدوهم » . وأدت هذه الهزيمة التى لحقت بالأحباش فى مكة إلى نهاية احتلالهم لبلاد اليمن ، فقد قامت حركة تحرير وطنية تزعمها سيف بن ذى يزن الحميرى ، ونجح سيف بمعاونة الفرس فى إجلاء الأحباش عن اليمن .

أصبح العرب يؤرخون أحداثهم بعام الفيل حتى خلافة عمر بن الخطاب ، كما شهد هذا العام مشرق نور الهداية والحق ، فقد ولد فى هذه السنة محمد صلى الله عليه وسلم .

٥ ـ الحج إلى الكعبة قبل الإسلام

الحج فى الأشهر الحرم :

كان العرب قبل الإسلام يحجون إلى الكعبة من جميع أرجاء الجزيرة العربية ، وشاركهم فى الحج أمم أخرى كالهنود والفرس والصابئة وبعض اليهود . وكانت أشهر الحج عندهم حرماً ، وكانوا يحرّمون الشهر الذى يكون فيه الحج ، وهو ذو الحجة ، والذى قبله والذى بعده . وكانوا يحرمون شهر رجب أيضاً ويسمونه شهر الله الأصم ، أى الذى لا تسمع

فيه قعقعة السلاح . فكانوا فى هذه الشهور الأربعة يلقون السلاح ولا يغزو بعضهم بعضا(١) .

وحكمة جعل ثلاثة أشهر للحج ، مع أن موسمه وأسواقه لا تستغرق إلا شهراً وأياماً واضحة ، فالمسافات الشاسعة التى يضطر الحاج إلى قطعها من الأنحاء القاصية تحتاج إلى مدة كافية للإياب والذهاب ، ولعل فى هذا دليلا على اشتراك العرب من مختلف أرجاء الجزيرة العربية وأطرافها فى الحج وشهودهم موسمه وأسواقه ، وعدم اقتصار ذلك على عرب الحجاز .

لم يكن الذين يشهدون موسم الحج ويؤدون مناسكه ويفدون إلى أسواقه مقصورين على منطقة مكة أو بلاد الحجاز ، أو على الوثنيين من العرب ، بل قدم كثير من عرب الأرجاء النائية ، كعرب اليمن ونجد ومشارف الشام ، كما كان منهم الموحدون الحنفاء ، أو الصابئة ، والنصارى واليهود. منهم من كان يأتى لأداء مناسك الحج ، ومنهم من كان يجمع بين الحج والتجارة ، ومنهم من كان يأتى للتبشير بدينه ، أو يأتى للمفاخرة والخطابة وإنشاد القصائد ، أو لحل مشاكل لا يمكن حلها إلا فى ظروف مثل ظروف الحج وموسمه وأمنه .

وفى العصر الجاهلى ، ساد نظام « الحمس » ، ولفظ الحمس جمع مفرده الأحمس ، ومعناه ابن البلد ، وابن الحرم ، والوطنى المقيم ، والذى ينتمى إلى الكعبة والمقام . فهو امتياز لأبناء الوطن وأهل الحرمة وولاة البيت وقطان مكة وساكنيها ، أشبه الأشياء بحق « حرية المدينة »

---

(١) تذكر بعض الروايات أن الأشهر الحرم هى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ويذهب بعض المفسرين أن أشهر الحج هى شوال وذو القعدة وذو الحجة ، ونحن نميل إلى تأييد الرأى الأول .

الذى يمنح فى بلاد العرب للأضياف الشرفاء ، تمييزاً لهم واعترافاً بمكانتهم ، كما أنه إظهار لشرف الانتساب إلى البلد الذى يمنح أهلوه ذلك اللقب. فقال المكيون المتميزون : « ليس لأحد من العرب حق كحقنا ولا منزلة كمنزلتنا » .

وعلامة الأحمس أن لا يعظم شيئاً من الحل (أى الأرض التى وراء الحرم) كما يعظم الحرم ، فإذا فعل ذلك استخفت العرب بحرمته ، فترك الحمس الوقوف على عرفة ، لأنه خارج عن الحرم والإفاضة منها ، مع إقرارهم بأنها من مناسك الحج . ويرون لسائر العرب أن يقفوا على عرفة وأن يفيضوا منها إلا أنهم قالوا : « نحن أهل الحرم فلا ينبغى لنا أن نخرج من الحرمة ولا نعظم غيرها » .

تحدث ياقوت الحموى [1] عن مذهب الحمس فقال : « كان من سنة الحمس ألا يخرجوا أيام الموسم إلى عرفات ، إنما يقفون بالمزدلفة ، وكانوا لا يشتكون ولا يأقطون ، ولا يربطون عنزاً ولا بقرة ، ولا يغزلون صوفاً ولا وبراً ، ولا يدخلون بيتاً من الشعر والمدر ، وإنما يكتفون بالقباب الحمر فى الأشهر الحرم » .

فأظهروا بذلك شدّة تعصبهم لبقعة من الأرض ، وترفعوا عن أن يخرجوا منها ، ولو كان فى خروجهم إتمام لمشاعر الحج . وفى القوانين الدولية الخاصة الحديثة من يكسب حق الوطنية بالدم ، ومن يكسبه بالميلاد فى أرض الوطن ، ومنهم من يناله بطول الإقامة . ففكرة الحمس إقرار لحق الوطنية بالانتساب للبقعة ، وامتياز لمن له هذا الحق .

وكانت فكرة الحمس صائبة لأنها ترمى إلى إعزاز جانب أهل الحرم ، وتضمن سلامة القاصدين إليها وتحجز ما بين الأعداء ، وتشل أيدى

---

(١) معجم البلدان (طبعة وستنفلد) ج ٤ ص ٦٢٠ .

المنتقمين والمتربصين ، فنشأ حق الالتجاء من حق الحمس [١] .

لم تكن الكعبة محرمة أو مقدسة فى نظر قبيلة قريش فحسب ، بل فى نظر جميع القبائل العربية ، وتجلت تلك القداسة فى كل عام فى سلسلة الاحتفالات والأعياد والأسواق التى كانت تقام حول مكة فى بطحائها وظواهرها ، وفيها تمتزج المواسم الدينية ذات الشعائر والرسوم بالتجارة والمساومة والبيع والشراء وكان للأدب عند العرب نصيبه من الاهتمام ، فطالما خطب الخطباء وأنشد الشعراء ونطق الحكماء فى تلك الأسواق التى كانت فيها أركان ومواقف أشبه بمجامع العلم والأدب فى عصورنا الحديثة .

وأراد المكيون أن تقع مواسم الحج والأعياد والأسواق فى فصل الشتاء ، وطرف من الربيع ، وآخر من الخريف ، فوضعوا نظام النسىء ، ليجعلوا من السنة القمرية والتاريخ الهلالى سنة شمسية ، ويحتفظوا بحلول الموسم فى الوقت الذى يرغبونه . ولم يختر المكيون هذا الوقت من العام عبثاً ، ولم يفضلوه على غيره لطيب هوائه أو خفة حرارة القيظ على الوافدين ، إنما اختاروه لأنه الوقت الذى يكون فيه الأدم والثمرات وغيرها من الإنتاج الزراعى والبضائع معدّة للعرض فى الأسواق ، مما يحقق الفائدة المادية لبدو الجزيرة العربية الذين يعتمدون على التجارة فى إنتاجهم الاقتصادى فى مواردهم وحياتهم .

اهتمام قريش بالحج :

تطورت مدينة مكة وأصبحت مدينة كبرى ، وخاصة بعد سقوط الدولة الحميرية فى بلاد اليمن ، ونالت المنزلة الكبرى لوجود الكعبة بها ، ولازدهار تجارتها ، ولموقعها الجغرافى ، ويضيف المؤرخ الألمانى « ولهاوزن»

---

(١) ثورة الإسلام ص ٨٢ .

عاملا آخر ، هو تفوق سكان مكة من قريش ، ذلك أن نهضة أهل مكة الثقافية تأثرت بالعلاقات الطيبة مع الساميين الشماليين . فالمقطوع به أن التجارة التى امتدت إلى سوريا والحيرة وجنوب بلاد العرب قد حملت مؤثرات ومطامح جديدة [١] .

وسعت قريش إلى تحقيق السلام فى مكة ، بل فى أرجاء بلاد الحجاز ، لتشجيع الحجاج والتجار على الرحيل فى أمان واطمئنان ، وابتعدت قريش عن الحروب القبلية ، ونجحت فى السيطرة على سائر القبائل العربية . وارتبطت قريش بالدول المعاصرة بكثير من الصلات الاقتصادية والسياسية ، واقتبسوا منها ألواناً مختلفة من الحضارة والثقافة . وتأثروا بنظمها السياسية والاجتماعية .

اهتمت قريش بشئون مكة لتسهيل الحج ، فنظمت الخدمات البلدية ، وتوفير المياه للحجاج ، وتمهيد طرق مكة ونظافتها ، ووقاية مدينة مكة من السيول التى كثيراً ما يشهدها المكيون ويعانون منها ، كما اهتمت قريش بإضاءة طرقات مكة ، وإقامة النيران فوق الجبال العالية المحيطة بمكة لإرشاد قوافل الحجاج والتجار .

فى الأشهر الحرم ، يتوقف القتال ، ويشد العرب رحالهم من كل مكان إلى مكة ، وينزلون عند مشارفها وقرب الآبار الكثيرة المحيطة بها ، حيث يقضون أياماً يبيعون ويشترون ، ويتعارفون ويتسامرون . ثم يقصدون سوق عكاظ التى أصبحت ميداناً للمباراة فى الشعر والخطابة ، ومحكمة يفصل وجوه العرب فيها فى الخصومات ، وسوقاً عالمية تعج بأنواع السلع المختلفة المجلوبة من دول العالم القديم . حتى إذا افرغ الناس من سوق عكاظ ، وقفوا فى عرفة ، ثم قدموا إلى مكة ، فأدوا شعائر الحج ، ثم يعودون إلى بلادهم .

---

(١) هل : الحضارة العربية ص ١٧ .

وأثر الحج فى الحياة الاجتماعية فى الجزيرة العربية ، فقد كانت القبائل تختلط وتمتزج فى سلام ، وتتناسى العداء والخصام ، فيلتقون ويتعارفون ، ويبيعون ويشترون ، ويتزاوجون ، ويتناشدون الأشعار ، ويحلون مشاكلهم ، مما يخفف من حدّة العصبية القبلية ويوجد مظهراً لحياة اجتماعية راقية متماسكة .

السدانة والسقاية والرفادة :

أدرك وجوه قريش خاصة ، وأهل مكة عامة ، ما عليهم من واجبات نحو الكعبة والحجاج . فقد كانوا يرون لأنفسهم حق الحرمة والاختيار على العرب بسبب اختصاصهم بكرامة جوار البيت الحرام ، ويعتبرون أنفسهم أهله وأولياءه . كما كانوا يدركون مركز بلدهم وما أنعم الله عليهم من كرامته وقدسيته . ولذا تضامنوا فى القيام بواجبهم نحو وفود الحجاج من ترحيب وإكرام ، باعتبارهم ضيوف بيت الله الذى فى بلدهم ، والذين هم سدنته .

وكانت المناصب فى قبيلة قريش خمسة عشر منصباً ، قسمتها قريش بين بطونها المختلفة ، لتحفظ التوازن بينها ، وتمنع تنافرها أو تنازعها ، ولتحفظ لقريش وحدتها وتماسكها ، ولتوفر لمكة الهدوء والسلام اللازمين . لتشجيع الحجاج والتجار على الرحيل فى كل عام إلى مكة . وكانت أشرف هذه المناصب ، السدانة والسقاية والرفادة .

أما السدانة ، أو الحجابة ، فصاحبها يحجب الكعبة وبيده مفتاحها ، يفتح بابها للناس ويغلقه ، ومنصب السدانة أبرز المناصب على الإطلاق ، والمنصب الثانى هو السقاية ، ويتولى مناصبها توفير المياه للحجاج ، ولم تكن هذه المهمة يسيرة ، لقلة المياه فى مكة ، فكان من يتولى المنصب

ينشئ حياضاً من الجلد ، يضعها إلى فناء الكعبة ، وينقل إليها المياه العذبة من الآبار على الإبل فى المزاود والقرب . وكانت السقاية فى بنى هاشم ابن عبد مناف . أما المنصب الثالث فهو الرفادة ، فكانت قريش تجمع من وجوهها بعض الأموال فى موسم الحج ليقوم صاحب المنصب بإعداد الطعام لفقراء الحجاج ، باعتبارهم ضيوف الكعبة . وكان أول من قام بالرفادة قصى بن كلاب ، وأصبحت فى بنى نوفل ، ثم فى بنى هاشم . ومن المناصب الكبرى التى تتعلق بالكعبة والحج منصب « العمارة » ويراد بها أن لا يتكلم أحد فى المسجد الحرام بهجر ولا رفث ولا يرفع فيه صوته [1] . وعملت قريش على تشجيع الحجاج ، فبذلت كل جهد لإنصاف المظلوم ، ونشر العدل ، وعقدت من أجل ذلك « حلف الفضول » ، « فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أوغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه [2] حتى ترد عليه مظلمته » .

استنّ قصى بن كلاب ، مؤسس قريش ، سنة الرفادة ، وتوارثها أبناؤه من بعده ، فأصبحت سنة تقليدية متوارثة . وقد عرف ابن هشام [3] الرفادة فقال : « وكانت الرفادة خرجاً تخرجه قريش فى كل موسم من أموالها ، إلى قصى بن كلاب ، فيصنع به طعاماً للحجاج ، فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد . وذلك أن قصيا فرضه على قريش ، فقال لهم حين أمرهم به : يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم ، وإن الحاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج ، حتى يصدروا عنكم . ففعلوا فكانوا يخرجون لذلك كل

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ١ ص ٣٨ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤١ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٣٠ .

عام من أموالهم خرجاً ، فيدفعونه إليه ، فيصنعه طعاماً للناس أيام منى » .

تولى قصى بن كلاب الحجابة والسقاية والرفادة ودار الندوة واللواء . وبنت قريش بأمر قصى حول الكعبة دورها ، وتركوا مكاناً كافياً للطواف بالبيت ، وتركوا بين كل بيتين منفذاً ينفذ منه إلى المطاف .

أنجب قصى ثلاثة أولاد هم : عبد الدار ، وعبد مناف ، وعبد العزى . وكان عبد الدار أكبرهم سناً ، ولكن عبد مناف كان أكثر شهرة وأرفع شأناً ، فكسب احترام قومه وعظمت مهابتهم . ورأى قصى أن يعوض عبد الدار عما افتقده ، فأسند إليه بعض المناصب ليعتز بها على أخيه ، فقال قصى لعبد الدار : « أما والله لألحقنك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك ، لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها ، ولا يعقد لقريش لواء لحربهم إلا أنت بيدك ، ولا يشرب رجل بمكة ماء إلا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاماً إلا من طعامك ، ولا تقطع قريش أمورها إلا في دارك » .

وبعد وفاة قصى ، تولى عبد الدار هذه المهام ، وورثها أبناؤه عنه . ولكن سرعان ما نازعهم عليها أبناء عبد مناف بن قصى ، وهم : عبد شمس وهاشم ، والمطلب ، ونوفل . فقد رأوا أنهم أجدر وأقدر من أبناء عبد الدار ، وأدى هذا التنافس إلى انقسام قريش ، وكادوا يقتتلون ، ثم جنحوا إلى السلم ، واتفقوا على أن يتولى بنو عبد مناف بن قصى السقاية والرفادة ، وأن تكون الحجابة واللواء ورياسة دار الندوة لبنى عبد الدار بن قصى .

تولى هاشم بن عبد مناف السقاية والرفادة ، وحدث أن مرت فترة جدب وقحط بمكة ، وعانت منها قريش ، فرحل هاشم إلى فلسطين حيث اشترى كمية كبيرة من الدقيق ، فقدم به إلى مكة ، حيث صنع منه خبزاً ، ثم قام بذبح الذبائح ، وصار يهشم الخبز لقومه فأطلقوا عليه اسم

« هاشم » ، بدلا من اسمه الأصلى « عمرو » . وارتفع شأن هاشم فى أرجاء الجزيرة العربية .

وتولى المطلب السقاية والرفادة بعد أخيه هاشم . حتى إذا شب عبد المطلب بن هاشم ، نازع عمه فى مناصبه ، واستعان بأخواله من بنى النجار فى يثرب ، ونجح فى استرداد مناصب أبيه . ووصف ابن هشام (١) ما حازه عبد المطلب من مجد وسؤدد فقال : « ثم ولى عبد المطلب ابن هاشم السقاية والرفادة بعد عمه المطلب ، فأقامها للناس وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون من قبله لقومهم من أمرهم وشرف فى قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه وعظم خطره فيهم » .

تولى عبد المطلب منصبى السقاية والرفادة ، ولقى مشقة كبيرة فى توفير المياه اللازمة للحجاج والوافدين على مكة ، وخاصة أن مكة مرت بفترة ندرت فيها الأمطار ، وكادت تجف مياه الآبار ، فى حين أشرف موسم الحج ؛ ثم كانت الرؤيا التى دلت عبد المطلب على مكان بئر زمزم التى عفت عليها الأيام . وخرج عبد المطلب وابنه الحارث ، ونجحا فى كشف مكانها وإعادة حفرها ، وتدفق الماء من جديد من هذه البئر المقدسة ، تروى الزرع والثمار ، وتضمن توافر الماء للحجاج وأهل مكة .

وجد عبد المطلب فى بئر زمزم نفائس وذخائر ، كانت لمضاض الجرهمى وقد أخفاها فى البئر وردم عليها عند اضطراره للجلاء عن مكة ، وحتى لا يعثر أعداؤه عليها ، وكان قد عجز عن حملها معه إلى منفاه ، وتراكمت الرمال عبر السنين فأخفت هذه النفائس عن العيون والأيدى . ونازع القرشيون عبد المطلب فيما وجد وطالبوه بأن يشاركوه فى هذه الذخائر ، ولجأ إلى القداح لحسم النزاع .

كان فى مقدمة هذه النفائس غزالان من الذهب وأسياف وأدرع .

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤٢ .

وانتهت عملية ضرب القداح إلى أن أصبح الغزالان من نصيب الكعبة ، والأسياف والأدرع من نصيب عبد المطلب ، فضرب عبد المطلب الأسياف بابا للكعبة ، وضرب فى الباب الغزالين الذهبيين ، ولكن بريق الذهب جعل بعض اللصوص يطمعون فيه ، فتسللوا فى جنح الظلام إلى الكعبة وجردوها مما كانت تتحلى به من نفائس ذهبية .

أصبح عبد المطلب بعد اكتشاف بئر زمزم ، ينقل الماء منها إلى الحياض المحيطة بالكعبة ، ويحلى الماء بالتمر والزبيب وكان ابنه العباس يملك بساتين عنب فى الطائف ، وهى مدينة على مقربة من مكة ، فكان يمد والده بحاجته من الزبيب .

هدى الكعبة :

الهدى هو الحيوان الذى يسوقه الحاج ليذبحه بعد أداء مناسكه قربان شكر لله . وإذا كان الحيوان من البقر والإبل سمّى بدناً . وكلمة الهدى مشتقة من الإهداء على اعتبار أن القربان هدية من الحجاج إلى الله أو إلى الكعبة . وجرت عادة العرب فى العصر الجاهلى على ذبح هديهم عند الأوثان والأنصاب فى فناء الكعبة ، ويتركونها بعد الذبح . وعادة ذبح القرابين للمعبودات عادة قديمة يشترك فيها البشر فى بعض أدوارهم وأطوارهم ومختلف بيئاتهم . غير أن الروايات ذكرت أن العرب الجاهليين كانوا يرجعون تقليدهم فى ذبح القرابين إلى إبراهيم الذى امتحن بذبح ولده ففداه الله بذبح عظيم . ويرجح البعض أن العرب كانوا يعرفون أخبار هذه الأحداث ويتناقلونها ويرجعون إليها أو يعللون بها ذبح الضحايا . كما كانوا يرجعون قيامهم بالحج إلى دعوة إبراهيم للناس ليحجوا ، وكانوا يدركون صلة إبراهيم بالكعبة ومقامه فى فنائها .

وكان العرب قبل الإسلام يعتبرون العمرة إلى مكة واجباً مقدساً . فكانت تقدم الذبائح لبعض الأصنام فى وادى عرفة على مسافة بضعة أميال من الشمال الشرقى لمكة ، وفى المزدلفة على مسيرة ساعتين من عرفة ، وفى منى بعد مسيرة ساعتين أخريين عن المكان السابق . ثم غدت عبادة هذه الأصنام والحج إليها ، هى العبادة السائدة فى وسط بلاد العرب فقامت آلاف عديدة من العرب بالحج والعمرة فى الأشهر الحرم ، مما جعل الحجاز أيام الجاهلية مركز حياة العرب الدينية(١) .

وأصبحت تقاليد تقديم الهدى تعين صاحب منصب « الرفادة » فى القيام بمهمته ، فقد كان فقراء الحجاج يأكلون من لحوم الهدى ، ولذا كان العرب يحترمون الحيوانات التى تهدى إلى الكعبة ، فكانت تترك سائمة فلا يتعرض لها أحد . واعتاد الحجاج العرب تقليد الهدى ، أى وضع قلادة من سيور الجلد أو ألياف الشجر فى عنقه إعلاناً بأنه هدى ، فيصبح محرماً مقدساً . واعتاد الحجاج فى العصر الجاهلى أن يلطخوا جدران الكعبة بدماء الهدى ، ظناً منهم أن فى هذا تقرباً إلى الله والكعبة . وكانوا لا يأكلون لحوم هديهم ، ويتبرعون بها للحجاج الفقراء .

٦ ــ الكعبة قبيل الإسلام

ضعف الوثنية العربية :

فقدت الوثنية العربية قبيل ظهور الإسلام ، معناها الأول ، وقوتها السالفة ، ودب فيها الفساد ، وتغير جوهرها وأصبحت مجموعة من الخرافات

---

(١) هل : الحضارة العربية ص ١٦ .

والأوهام . ولكن ، وبرغم ذلك، احتفظ أهل مكة وزعماؤها بالأوثان عند الكعبة ، لما كانت تعود به عليهم من فوائد مادية ، فقد كانت تجذب آلاف الحجاج فيتحملون مشقات السفر من أجل الحج ، ويصبح موسم الحج موسم أسواق تجارية كبرى ، وتصبح مكة مركزاً تجارياً عظيما. ويتنافس الحجاج فى تقديم القرابين ، وهذه الضحايا تباع وتشترى فى قريش ، ويتوزعها فقراء مكة وقريش . ولذا أصبحت الوثنية بالنسبة لهم مسألة اقتصادية مادية .

تحدث المؤرخ الهندى المسلم « خودابخش » فى كتابه الذى قمنا بترجمته بعنوان « الحضارة الإسلامية »[1] عن ضعف الوثنية فى أواخر عصر الجاهلية فقال : كان العرب يقدسون آلهتهم ، فيحجون إلى أماكنها المقدسة ، ويقدمون الأضحيات فى معابدها ، ويخضبون بدماء هذه الأضحيات الهياكل المصنوعة من الأحجار أو الخشب ، ويستجيرون بكهنتها فى وقت الشدة ، ويسألونهم عما يخبئه المستقبل . ولكن كان هذا كله تظاهراً وتصنعاً ، فلم يكن هناك شعور بإيمان حقيقى ، ولكن كان العربى يبدى غضبه ، لأقل شىء على الآلهة ، ويخاطبهم وكأنه يعرف حقيقتهم ، فيسخر منهم .

وهذه الحقائق — كما يقول خودابخش — توضح أن عرب ما قبل الإسلام كانوا فى حالة قلق دينى قبل ظهور الإسلام ، فقد كانوا غير راضين عن نظامهم الدينى وعاجزين عن الوصول إلى ما هو أحسن بحيث يرضى حاجاتهم ومطالبهم ، وكانوا فى اختلافات دينية . كانوا يمارسون عبادة الأوثان ، ولكن بدون شعور بإيمان حقيقى .

كان العرب فى ظاهر أمرهم يمجدون هذه الأرباب ، ويحجون إلى

---

(١) خودابخش : الحضارة الإسلامية ص ٢٩ .

محرابها ويحتفلون بمواسمها السنوية ، ويذبحون القرابين فى هيا كلها ، ويريقون دماءها على تلك الآلهة التى يعبدونها ، سواء أكانت من الحجر أم الخشب ، بل لقد كانوا يلجأون إليها كلما حزمهم أمر يلتمسون منها البركة ، ويتكشفون بواسطتها مستقبل أمرهم الغامض . ولكن عقيدتهم فيها لم تزد على هذا القدر من المظاهر ، أما فيما عدا ذلك ، فقد كانوا لا يترددون فى تحطيم آلهتهم إذا لم تتحقق نبوءتها .

دعوة إلى تخليص الكعبة من الأوثان :

قبيل ظهور الإسلام ، أبدى بعض وجوه العرب ، من الشخصيات المستنيرة ، سخطهم على الوثنية ، وأملوا فى دين أسمى من أديان وطنهم . فروى ابن هشام[1] : « اجتمعت قريش يوماً فى عيد لها عند صنم من أصنامهم ، كانوا يعظمونه وينحرون له ، ويعكفون عنده ، ويديرون به ، وكان ذلك عيداً لهم فى كل سنة يوماً ، فخلص منهم أربعة نفر نجيا ، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض . قالوا : أجل . . . فقال بعضهم لبعض : تعلموا والله ما قومكم على شىء ، لقد أخطأوا دين إبراهيم ، ما حجر نطيف به ، لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ؟ يا قوم ، التمسوا لأنفسكم ديناً ، فإنكم والله ما أنتم على شىء . فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم » .

نقرأ فى المصادر القديمة عن أبى أنس قيس بن صرماح ، وقد نادى بنبذ الأوثان ، كما نقرأ أيضاً عن الوليد بن المغيرة ، وعثمان بن مدهون اللذين نهيا عن شرب الخمر زمن الجاهلية .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٧ .

استعرض المسعودى أديان العرب فى العصر الجاهلى فقال : « كانت العرب فى جاهليتها فرقاً : منهم الموحد المقر بخالقه ، المصدق بالبعث والنشور ، موقناً بأن الله يثيب المطيع ، ويعاتب العاصى ، وقد تقدم ذكرنا فى هذا الكتاب وغيره من كتبنا من دعا إلى الله عز وجل ونبه أقوامه على آياته فى الفترة ، كقس بن ساعدة الإيادى ورئاب الشنى ، وبحيرا الراهب ، وكان من عبد القيس .

« وكان من العرب من أقر بالخالق ، وأثبت حدوث العالم وأقر بالبعث والإعادة ، وأنكر الرسل ، وعكف على عبادة الأصنام ، وهم الذين حكى الله عز وجل قولهم : (ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زلفى) الآية . وهذا الصنف هم الذين حجوا إلى الأصنام وقصدوها ، ونحروا لها البدن ، ونسكوا لها النسائك ، وأحلوا لها وحرّموا .

« ومنهم من أقرّ بالخالق ، وكذّب بالرسل والبعث ، وما إلى قول أهل الدهر ، وهؤلاء الذين حكى الله إلحادهم وخبر عن كفرهم بقوله تعالى : (وقالوا ما هى إلاّ حياتنا نموت ونحيا وما يهلكنا إلاّ الدهر) فردّ الله عليهم بقوله : (وما لهم بذلك من علم إن هم إلاّ يظنون) .

« ومنهم من مال إلى اليهودية والنصرانية ، ومنهم المار على عنجهيته الراكب لهجمته . وقد كان صنف من العرب يعبدون الملائكة ، ويزعمون أنها بنات الله ، فكانوا يعبدونها لتشفع لهم إلى الله ، وهم الذين أخبر الله عز وجلّ عنهم بقوله تعالى : (ويجعلون لله البنات ولهم ما يشتهون) وقوله تعالى : (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذاً قسمة ضيزى) » .

أفرد ابن قتيبة فصلا فى كتابه « المعارف » (١) جعل عنوانه « قصة

---

(١) ابن قتيبة : المعارف ص ٢٧ — ٢٩ .

من كان على دين قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم» ، فذكر عدّة أسماء ومن هذه الأسماء زيد بن عمرو بن نفيل ، وهو ابن عم عمر بن الخطاب ، وكان زيد قد رغب عن عبادة الأوثان وطلب الدين فقتله النصارى بالشام ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم إنه يبعث أمة وحده . ومنهم أيضاً أمية ابن أبي الصلت وكان قد قرأ الكتب ورغب عن عبادة الأوثان ، وكان يخبر بأن نبيا يبعث قد أظل زمانه . ومنهم أيضاً أسعد أبو كرب الحميرى ، ويذكر ابن قتيبة أنه آمن بالنبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث بسبعمائة سنة وقال :

شهدت على أحمد أنه ... رسول من الله بارى النسم
فلو مدّ عمرى إلى عصره ... لكنت وزيراً له وابن عم
وألزم طاعة كل من ... على الأرض من عرب أو عجم

ومن هؤلاء قس بن ساعدة الإيادى ، وهو حكيم العرب ، وذكر الرسول أنه رآه يخطب فى سوق عكاظ وهو على جمل أحمر . ومنهم أيضاً أبو قيس صرمة بن أبى أنس ، وهو من بنى النجار ، وكان قد ترهب ولبس المسوح وفارق الأوثان ، ودخل بيتاً له فاتخذه مسجداً وقال : أعبد رب إبراهيم . فلما قدم الرسول عليه الصلاة والسلام المدينة أسلم وحسن إسلامه .

وآخر من عدّدهم ابن قتيبة هو خالد بن سنان بن غيث وهو من بنى عبس بن بغيض ، وروى أن رسول الله قال : ذلك نبى أضاعه قومه . ويروى ابن قتيبة أن ابنته قدمت على الرسول فسمعته يقرأ : قل هو الله أحد . فقالت : كان أبى يقول ذا .

ويذكر المؤرخ الألمانى «جوزيف هل»[1] أن أناساً فى بلاد العرب ،

---

(١) هل : الحضارة العربية ص ١٩ .

ولا سيما في مكة ، كانوا ساخطين على الديانة القائمة بينهم ، وتلمسوا الهداية في المسيحية واليهودية ، أو انتقوا نوعاً من العبادة كان جديداً وتقدمياً في نفس الوقت . ويصف المؤرخ « ويتلف نيلسن » في مقال له بعنوان « الديانة العربية القديمة »(١) الأصنام قبيل ظهور الإسلام بأنها « آلهة عهد الاضمحلال والتدهور الذي سبق الإسلام » .

الكعبة مركز الدعوة الحنيفية :

قبيل ظهور الإسلام ، ظهرت حركة إصلاحية تهدف إلى العودة إلى دين إبراهيم الحنيف ، وتخليص الكعبة من الأوثان ، وإصلاح أحوال العرب . فقد ظهرت مدرسة جديدة ذات عقيدة تدعى الحنيفية . فقد كان من بين العرب أناس مستنيرون فطنوا إلى سوء حالتهم الدينية ، وحاولوا الارتقاء من الوثنية إلى اعتقادات أرقى منها ، ودعوا إلى دين التوحيد وإلى إحياء ملة إبراهيم ، ونبذ عبادة الأوثان والتخلص من عادات الجاهلية . وكانوا يعتقدون في البعث وبوجود إله واحد يحاسب ويجازي الناس على أعمالهم من خير أو شر ، ويطلق على هذه النزعة التحنف ، وعلى أصحابها الحنفاء .

وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم في سورة آل عمران(٢) : (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً . ولكن كان حنيفاً مسلماً . وما كان من المشركين) ، وقال الله تعالى في هذه السورة أيضاً(٣) : (قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) .

---

(١) التاريخ العربي القديم .
(٢) آية ١٧٧ .
(٣) آية ٦٧ .

كان كعب بن لؤى بن غالب ، أحد أجداد الرسول ، من الحنفاء ، فكان يجمع قريشاً ويطلب منهم التفكير فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، ويذكرهم بالموت وأهواله واليوم الموعود وأحواله ، ويبشرهم بظهور نبى .

والحنفاء هم من احتفظوا بدين إبراهيم من الجاهليين . فلم يشركوا بربهم أحداً ، ولم يعتنقوا اليهودية ولا المسيحية ، كما نبذوا الوثنية . وقد كان العرب جميعاً قبل عهود الوثنية فى عهد عمرو بن لحى الخزاعى يدينون بدين التوحيد الذى بشر به إبراهيم .

عدّ بعض المستشرقين الحنفاء شيعة من شيع النصارى . واستدلوا على ذلك بما ورد فى بعض المصادر القديمة من اعتناق بعض من نبذوا الوثنية الدين المسيحى ، مثل ورقة بن نوفل . غير أن القرآن الكريم قد نص نصاً صريحاً على أن الحنفاء لم يكونوا يهوداً ولا نصارى ، وأنهم يعتنقون دين إبراهيم ، ولم يكن إبراهيم يهودياً ولم يكن نصرانياً . كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة النبوية حنيفاً مسلماً يؤمن بالتوحيد .

لم ينتظم الحنفاء فى طائفة ، ولم يرتبطوا برباط واحد ، ولم يشتركوا فى عبادة واحدة معينة ، ولكننا نعتقد أن هؤلاء الحنفاء ، أو المتعبدين على ملة إبراهيم ، لم يكونوا عدداً قليلا ، فلو لم يكونوا كثرة محسوسة لما عدّهم القرآن الكريم فئة خاصة وأشار إليهم بهذه الحفاوة وسلكهم مع أهل الكتاب والمؤمنين ، ثم مع أهل الأديان المستقلة عامة فى سلك واحد وتحت اسم مستقل . وقد ذكرت لنا كثير من المصادر القديمة أسماء عديدة لهؤلاء الحنفاء[1] .

كما أن ظهور هؤلاء الحنفاء المستنيرين فى غير مكان واحد ، وفى غير وقت واحد ، يدل على ظهور فكرة جديدة مستنيرة دارت فى أذهان

---

(١) دروزة : عصر النبى ص ٤٣٢ .

المفكرين المستنيرين من العرب قبيل ظهور الإسلام ، وهى فكرة نبذ عبادة الأوثان والتخلص من العادات السيئة الجاهلية ، والرقى بالعقيدة والسمو بالإنسانية ، وهى حلقة فى سلسلة التطور الدينى والفكرى فى تاريخ العرب .

نظر هؤلاء الحنفاء إلى الحياة نظرة أكثر سمواً ، ولكن لم يكن لهم من القوى المادية ومن السلطة السياسية ما يمكنهم من أن يصارعوا التعاليم والعادات القديمة ، والطقوس الدينية والشعائر المقدسة التى كانت قد تشابكت مع حياة العرب . ولا يمكن القضاء عليها إلا بهدم المجتمع العربى من أساسه ، وهذا ما نجح الإسلام فيما بعد فى تحقيقه ، إذ خلق مجتمعاً إسلامياً نقياً متماسكاً .

كافح الحنفاء من أجل القضاء على الوثنية ورذائل الجاهلية ، ولكن جهودهم لم تنجح فى التخلص من الماضى ، والقضاء على التقاليد المتوارثة عن الآباء والأجداد ، وكانت حركة الحنيفية تفتقر إلى سند دنيوى يظاهرها وترتكز عليه[1] .

كان محمد ، صلى الله عليه وسلم ، قبل نزول الوحى ، يؤمن أن الوقت قد حان لقيام حركة إصلاحية كبرى ، فقد انحدر العالم إلى الوثنية العمياء ، وابتعد الناس عن الطريق القويم ، كما رأى أن تعود الكعبة إلى ما كانت عليه زمن جده إبراهيم . وكانت هذه الأفكار تتوارد على ذهنه دائماً وأثرت فى أعماله وأفعاله . فقد كان كثيراً ما ينعزل عن المجتمع وينفرد بنفسه فى جبل حراء على بعد ثلاثة فراسخ من مكة حيث يقضى عدة أيام فى الصلاة والتعبد ، وكان يمضى شهر رمضان فى الغار ، وكان لا يشغل ذهنه إلا بموضوع واحد هو الروح .

---

(١) خودابخش : الحضارة الإسلامية ص ٣٣ .

وقد اعتاد بعض الحنفاء أن ينقطعوا للعبادة زمناً فى كل عام يقضونه بعيداً عن الناس فى خلوة ، يتقربون إلى الله بالزهد والدعاء . ويلتمسون عنده الخير والحكمة . وكانوا يسمون هذا الانقطاع التحنف أو التحنث .

وكان محمد ، صلى الله عليه وسلم ، قبل ظهور الإسلام ، من الحنفاء ، حتى إذا بلغ الأربعين من عمره نزل عليه الوحى وأصبح رسول الله . وكان محمد فى غار حراء يعبد الله وحده ، فنزل عليه جبريل عليه السلام يبلغه اختيار المولى عز وجل له ليكون رسوله الصادق الأمين .

وإن كانت جهود الحنفاء لم يكتب لها النجاح التام ، فإنها قد فتحت آفاقاً جديدة من التفكير ، ونجد آثار ذلك واضحة فى ظهور عقيدة توحيد الله ، ويقظة الضمير ، والشعور بالمسئولية ، وصحب ذلك ظهور بعض المشاعر الإنسانية صورها الشعراء فى القرن السادس الميلادى فى شعرهم .

٧ ــ الرسول والكعبة

تصدّع الكعبة :

حينما كان الرسول فى الخامسة والثلاثين من عمره[١] ، اشترك فى حادث جليل أثار اهتمام جميع العرب فى أرجاء الجزيرة العربية ، وهو إعادة بناء الكعبة .

وكانت قريش تفكر منذ سنوات كثيرة فى أمر الكعبة ، فقد كانت

---

(١) ابن هشام جـ ١ ص ٢٠٤ . وذكر العمرى « مسالك الأبصار » جـ ١ ص ٦٤ أن عمر الرسول كان ٢٥ سنة أو ٣٥ سنة .

بدون سقف ، منخفضة الارتفاع ، مما جعلها نهباً للصوص ، الذين أقدموا على سرقة بعض كنوز الكعبة التي كان القرشيون يحتفظون بها في جوفها.

كان ارتفاع الكعبة تسع أذرع أي نحواً من سبعة أمتار ، ولم يكن لها سقف ، وكان بابها بمستوى الأرض فيدخلها من شاء ، ويلقي فيها الناذرون نذورهم من حلي ومتاع وطيب ونقود فتقع في خزانة الكعبة التي كانت بمثابة صندوق للنذور ، وهي بئر عند بابها على يمين الداخل .

تعرّضت مكة لعدّة سيول في أوقات متفاوتة ، وحدث أن نزل سيل جارف من الجبال المحيطة بمكة ، فانحدر نحو الكعبة وصدّع جدرانها . وأصبحت قريش مضطرة إلى الإقدام على إصلاح ما أفسدته السيول ، وكانت من قبل تجد حرجاً في إعادة بنائها أو إدخال إصلاحات عليها . وكانت الظروف مهيأة لقريش لتقوم بإصلاح الكعبة ، فقد رمى البحر بسفينة إلى جدّة ، كانت لأحد تجار الروم . وكانت هذه السفينة قد بعث بها ملك الروم من مصر إلى الحبشة ليقوم ركابها ببناء كنيسة هناك[١] . وخرج وفد قرشي برياسة الوليد بن المغيرة إلى جدّة لشراء هذه السفينة .

وكان في مكة رجل نجار مسيحي يدعى ياقوم (أو باقول في بعض الروايات) ، ورأت قريش أن تستعين بخبرته . ويروى ابن هشام[٢] . أنه « كانت حية تخرج من بئر الكعبة التي كان يطرح فيها ما يهدى لها كل سنة ، فتتشرّق على جدار الكعبة ، وكانت مما يهابون ، وذلك أنه

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٨ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٠٥ .

كان لا يدنو منها أحد إلا احزوزأت وكشت وفتحت فاها، وكانوا يهابونها . فبينا هى ذات يوم تتشرق على جدار الكعبة . كما كانت تصنع . بعث الله إليها طائراً فاختطفها فذهب بها . فقالت قريش : إنا لنرجو أن يكون الله قد رضى ما أردنا. عندنا عامل دقيق . وعندنا خشب . وقد كفانا الله الحية » .

بدأت قريش عملية الهدم والبناء . وكان أول من بدأ الهدم عائذ ابن مروان بن مخزوم . فتناول من الكعبة حجراً . فوثب بين يديه ، حتى رجع إلى موضعه — كما يروى ابن هشام (١) — فقال عائذ : يا معشر قريش ، لا تدخلوا فى بنائها من كسبكم إلا طيباً ، لا يدخل فيها مهر بغى ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس .

اقتسمت قريش جوانب الكعبة الأربعة ، على أن يتولى كل فريق الهدم والبناء . ولكنهم ترددوا فى الإقدام على الهدم خشية أن يلحقهم الأذى . فقال الوليد بن المغيرة : أنا أبدؤكم فى هدمها . ثم أخذ المعول ، وبدأ الهدم وهو يقول : اللهم إنا لا نريد إلاّ الخير . ثم هدم من ناحية الركنين . وانتظر الناس ليلة وقالوا : ننظر . فإن أصيب لم نهدم منها شيئاً ورددناها كما كانت . وإن لم يصبه شىء ، فقد رضى الله صنعنا ، فهدمنا .

عاود القرشيون الهدم فى اليوم التالى . وانتهى الهدم بهم إلى الأساس ، أى أساس إبراهيم عليه السلام . وهى أحجار خضراء ، فضربوا عليها بالمعاول فارتدت عنها ، فرأوا أن يتخذوا هذه الأحجار أساساً للبناء الجديد .

ويروى ابن هشام (٢) أن قريشاً وجدت فى الركن كتاباً بالسريانية ، فلم يدروا ما هو مكتوب فيه ، وعهدوا بذلك إلى رجل يهودى ، فكان

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٠٦ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٠٨ .

المكتوب : (أنا الله ذو بكة ، خلقتها يوم خلقت السموات والأرض ، وصورت الشمس والقمر ، وحففتها بسبعة أفلاك حنفاء ، لا تزول حتى يزول أخشبانها (١) ، مبارك لأهلها فى الماء واللبن » .

الرسول وإعادة بناء الكعبة :

ثم بدأ بناء الكعبة من جديد ، فرأوا تعليتها ، وكان بابها لاصقاً بالأرض منذ عهد إبراهيم . فقال أبو حذيفة بن المغيرة : يا قوم ، ارفعوا باب الكعبة حتى لا يدخلها أحد إلا بسلم ، فإنه لا يدخلها حينئذ إلا من أردتم ؛ فإن جاء أحد ممن تكرهونه رميتم به فسقط وصار نكالا لمن يراه (٢) .

جمعت بطون قريش أحجاراً من الجرانيت الأزرق من الجبال المحيطة بمكة ، وبدأت البناء ، حتى بلغ البناء موضع الركن ، أى الحجر الأسود ، وأصبح ارتفاع البناء حينئذ إلى قامة الرجل ، وأرادوا وضع الحجر الأسود فى مكانه فى الجانب الشرقى ، فاختلفت بطون قريش على من يحوز شرف إعادة الحجر الأسود إلى مكانه ، واشتدت حدة الخلاف وكاد القتال ينشب بين بطون قريش ، وتحالف بنو عبد الدار وبنو عدى بن كعب على الموت ، وأعدوا جفنة مملوءة دما ، وأدخلوا أيديهم فى هذا الدم ، ولذا سموا « لعقة الدم » . واستمر النزاع أربع ليال أو خمساً ، ثم رأوا الاجتماع للتشاور وحسم النزاع .

وقف أبو أمية بن المغيرة ، وكان أسن قريش ، فقال : يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا

(١) الأخشبان : جبلان فى مكة .
(٢) العمرى : مسالك الأبصار جـ ١ ص ٩٤

المسجد يقضي بينكم فيه ، ففعلوا .

وكان أول داخل هو محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وكان قد اشترك معهم من قبل فى نقل الأحجار « وكانوا يعرفونه بالأمين لوقاره وهديه ، وصدق لهجته ، واجتنابه القاذورات والأدناس ، فحكموه فيما تنازعوا فيه ، وانقادوا إلى قضائه »[١] .

قال محمد : هلم إلىّ ثوباً . حتى إذا أتى له بثوب ، أخذ الحجر الأسود فوضعه فيه بيده ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوا جميعاً . فحملوه جميعاً إلى ما يحاذى موضع الحجر من البناء ، ثم قام محمد بوضعه بيده فى موضعه .

أكملت قريش البناء حتى أصبح ارتفاع الكعبة ثمانى عشرة ذراعاً ، ورفعوا بابها عن الأرض حتى لا يدخلها إلا من سمحوا له بذلك . وجعلوا فى داخلها ست دعائم فى صفين ، وجعلوا فى ركنها الشامى من داخلها درجاً يصعد بها إلى سطحها . ووضع هُبل فى داخل الكعبة ، كما وضعت فى داخلها الذخائر التى تعرّضت من قبل بنائها وسقفها للسرقة .

وهكذا نجح محمد ، عليه الصلاة والسلام ، فى حسم الخلاف والنزاع ، وجنب القرشيين القتال . فقال قائل من قريش : واعجبا لقوم أهل شرف ورياسة وشيوخ وكهول عمدوا إلى أصغرهم سناً ، وأقلهم مالا ، فجعلوه عليهم رئيساً وحاكماً ، أما واللات والعزى ليفوقنهم سبقاً ، وليقسمن بينهم حظوظاً وجدوداً ، وليكونن له بعد هذا اليوم شأن ونبأ عظيم [٢] . واستمع أبو طالب ، عم الرسول ، إلى هذه العبارات فأنشد :

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٩ .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٩ .

إن لنا أوله وآخره ... فى الحكم العدل الذى لاننكره
وقد جهدنا جهدنا ليغمره ... وقد عهدنا أوله وآخره
فإن يكن حقاً ففينا أكثره

وأعادت قريش الصور والأصنام كما كانت. فقال المسعودى[١] : « كان فى حيطانها صور كثيرة بأنواع من الأصباغ عجيبة : منها صورة إبراهيم الخليل فى يده الأزلام. ويقابلها صورة إسماعيل ابنه على فرس يجيز الناس مفيضاً . والفاروق قائم على وفد الناس ، يقسم فيهم ، وبعد هذه الصور صور كثير من أولادهم إلى قصى بن كلاب وغيرهم ، فى نحو من ستين صورة مع كل واحد من تلك الصور إله وصاحبها كيفية عبادته وما اشتهر من فعله » .

اختلف فى سن محمد حين بناء الكعبة وحين حكمه بين قريش فى أمر الحجر الأسود . فقيل كان ابن خمس وعشرين . وقال ابن إسحاق كان ابن خمس وثلاثين . وسواء أصحت الأولى أم الأخرى من هاتين الروايتين فإن إسراع قريش إلى الرضا بحكمه أوّل ما دخل من باب الصفا ، وتصرّفه هو فى أخذ الحجر ووضعه على الثوب ، وأخذه من الثوب لوضعه مكانه من جدار الكعبة . يدلّ على ما كان له من مكانة سامية من نفوس أهل مكة ومن تقدير جمّ لما عرف عنه من سموّ النفس ونزاهة القصد[٢] .

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٨ .

(٢) هيكل : حياة محمد ص ١٢٤ .

الكعبة عند ظهور الإسلام :

قبل ظهور الإسلام ، نبذ البعض – كما فعل محمد صلى الله عليه وسلم – عبادة الأوثان . ونظروا إلى الكعبة على اعتبارها بيت الله الحرام ولذا يجب تخليصها من الأوثان ومظاهر الشرك بالله عز وجل . كما نظروا إلى الحياة نظرة أكثر سمواً ، ولكن لم يكن لهم من القوى المادية مايمكنهم من أن يصارعوا التعاليم والعادات القديمة التى امتدت جذورها إلى أعماق حياة العرب ولا يمكن القضاء عليها إلا بهدم المجتمع العربى من أساسه .

شعر بعض العرب بحاجتهم إلى الإصلاح ، وإلى إنقاذ الكعبة من أدران الوثنية ، ولكنهم ترددوا فى انتزاع أول حجر من أسس ذلك الدين ، ولذا كانت جهودهم محدودة ، فلم تنجح فى التخلص من الماضى ، والقضاء على التقاليد البالية التى كانت تنتقص من شأن العرب وأهميتهم فى العصور القديمة .

ولم يكن هناك غير محمد ، صلى الله عليه وسلم ، الذى كانت تحيط به العناية الإلهية ويشعر بالغيرة الدينية وكانت روحه العالية لا تقبل تعدد الآلهة فى بلاد العرب ، وانتشار الأوثان حول الكعبة وداخلها ، وانصراف العرب إلى حياة الترف والشهوات ، وأصبح يفكر دائماً فى تحطيم هذا النظام القائم ، ونجح محمد فى أن يخلق مجتمعاً نقياً عظيما قوياً سليماً (١) .

ومن هذه الوثنية الحاطة للقدر ، سما النبى الكريم ببلاد العرب كلها ، فى فترة وجيزة من الزمن ، قدرها عشرون عاماً ، ولم تقتلع جذور الوثنية

---

(١) خودابخش : الحضارة الإسلامية ص ٦ .

من أرض العرب وحدهم ، بل إن بارقة الحماس لعبادة إله واحد ، قد اشتعلت فى أفئدة هؤلاء العرب أنفسهم ، فحملتهم إلى أقصى حدود ما عرف من العالم وقتئذ ، لرفع اسم الأحد الصمد .

ولم تفت سعة المسافة فى عضد الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، الذى قام بدعوته ، فانتشلت بلاداً شاسعة لا تقل مساحتها عن مليون وربع مليون من الأميال المربعة من لعنة الوثنية ، انغمس فيها الناس انغماساً ميئوساً من مقاومته ، لقدم العهد بتقاليد متوارثة ، ومحمد بهذا يستحق لقب محطم الأصنام ، ومزيل الوثنية[1] .

وصف ابن حزم[2] أثر الإسلام فى تقدم العرب وتخليصهم من مفاسد الجاهلية فقال : « وكانت العرب بلا خلاف قوماً لقاحاً لا يملكهم أحد كربيعة ومضر وإياد وقضاعة ، أو ملوكاً فى بلادهم يتوارثون الملك كابراً عن كابر . . . . فانقادوا كلهم لظهور الحق وآمنوا برسول الله ، وهم آلاف ، وصاروا إخوة كبنى أب أو أم ، وانحل كل من أمكنه الانحلال عن ملكه منهم إلى رسوله طوعاً بلا خوف غزو ولا إعطاء مال ولا بطمع فى عز . . . بل كلهم أقوى جيشاً من جيشه ، وأكثر مالا وسلاحاً منه ، وأوسع بلداً من بلده » .

ووصف « فون كريمر » أثر الإسلام فى توحيد العرب فقال : جمعت فكرة الدين المشترك تحت زعامة واحدة شتى القبائل فى نظام سياسى واحد. ذلك النظام الذى سرت مزاياه فى سرعة تبعث على الدهش والإعجاب و إن فكرة واحدة قد حققت هذه النتيجة ، تلك هى مبدأ الحياة القومية فى جزيرة العرب الوثنية .

---

(١) مولاى محمد على : محمد رسول الله ص ١٥ .

(٢) ابن حزم : الفصل فى الملل .

الرسول والكعبة :

ظل الرسول ثلاث سنوات يدعو إلى الإسلام سراً كل من يثق فيه أو يرى منه قبولا للدين الجديد ، وكان يصلى هو والمسلمون خفية فى شعاب مكة [١] ، إلى أن أمره الله بإظهار دينه ، فقد نزلت عليه هذه الآيات الكريمة : (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين) [٢] . وجهر الرسول بالإسلام ، وأعلن الدعوة إلى وحدانية الله ، ونبذ الوثنية . ولجأ فى ذلك إلى طريقة عربية متبعة وقتئذ ، وهى طريقة النداء ، فسار إلى جبل الصفا بظاهر مكة ، ونادى كل بطن من بطون قريش حتى إذا اجتمعوا إليه قال لهم : إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ، وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله . فقال له أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله تعالى فى أبى لهب وزوجته : (تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد) .

بدأت عداوة قريش بعد ذلك تظهر ظهوراً واضحاً ، فقد كان جهر الرسول بالدعوة إلى وحدانية الله ، وغضه من شأن الأوثان ، كل ذلك جعل قريشاً تؤمن بأن انتصار الدين الجديد معناه تحطيم دين العرب الموروث و « العبادة القومية » [٣] ، وضياع ما كان يتمتع به سدنة الكعبة المقدسة من ثروة ونفوذ .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٧٥ .

(٢) سورة الحجر ، آية ٩٤ — ٩٥ .

(٣) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٣٧ .

كانت قريش إذا اتبعت الدين الإسلامى سقطت قيمة أصنامها وضاعت قدسيتها ، وبذلك تفقد قريش ما كانت تستفيده من قدوم القبائل العربية للحج إلى مكة وتقديم القرابين إلى الأوثان التى نصبتها قريش حول الكعبة . كما كان عزوف قريش عن عبادة الأصنام يفقدها احترامها بين العرب ويجعل تجارتها عرضة للخطر كسائر تجارات القبائل الأخرى بعد أن كانت فى أمان لا يعتدى عليها أحد لئلا يعرض نفسه لنقمة الآلهة وغضبها .

وكان الإسلام يساوى بين الجميع ، حينما كانت قريش تدين بنظام الطبقات ، فكان سراتهم يأنفون من مخالطة السوقة أو مجالستهم ، وكان الإسلام يحرّم الموبقات ورذائل الجاهلية ، وهذه أحب الأشياء إلى زعماء قريش .

اشتد عذاب قريش للمسلمين ، فسمح الرسول لهم بالهجرة إلى الحبشة ، واستمر الرسول يدعو الناس إلى الإسلام ، حتى إذا أسلم حمزة بن عبد المطلب ، وكان شخصية لها شأن كبير كف القرشيون عن المسلمين بعض أذاهم ، حتى إذا أسلم عمر بن الخطاب دخل الإسلام فى دور جديد ، فكان المسلمون قبل إسلامه لا يستطيعون الصلاة عند الكعبة ، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عندها وصلى معه المسلمون ، وجهر المسلمون بتلاوة القرآن الكريم ، كما اعتنق الإسلام كثير من الناس اقتداء بحمزة وعمر [١] .

كانت هجرة المسلمين إلى الحبشة فراراً من أذى قريش ، وإسلام حمزة وعمر ، ضربتين أصابتا قريشاً فى الصميم ، فرأى القرشيون أن يتخذوا أمراً حاسماً ، فاتفقوا على مقاطعة بنى هاشم وبنى عبد المطلب ،

---

(١) المقريزى : إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٢٥ .

وعاهدوا أنفسهم على ألا يتعاملوا معهم فى بيع أو شراء أو زواج ، ولا يجالسوهم ولا يكلموهم . حتى يسلموا إليهم محمداً صلى الله عليه وسلم ليقتلوه ، وكتبوا بذلك صحيفة علقوها فى جوف الكعبة[١] .

ظل بنو هاشم وبنو عبد المطلب مهجورين فى شعب من شعاب مكة ثلاث سنين لا يصلهم القوت الضرورى إلا خفية ، وكانوا لا يخرجون إلا فى الأشهر الحرم حيث حرّم القتال فى جميع أرجاء بلاد العرب ، وعقد حلف بين الفريقين حتى يتمكن الحجاج من زيارة الكعبة بمكة التى كانت تعتبر مركز ديانة العرب حينئذ .

ولكن بعض القرشيين رثوا لحال إخوانهم فى العروبة بنى هاشم وبنى عبد المطلب . وعبر زهير بن أمية عن رأيهم فقال : يا أهل مكة ، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى لا يبيعون ولا يبتاعون ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة[٢] .

وتروى المصادر العربية أن الرسول صلى الله عليه وسلم رأى فى حلمه أن الله قد سلط الأرضة على الصحيفة . فمحت كل ما فيها من ظلم أو قطيعة رحم ، وبقى بها اسم الله . وأخبر الرسول عمه برؤياه ، فقدم أبو طالب على المشركين وقال : « هلموا إلى صحيفتكم ، فإن كانت كما قال ابن أخى فانتهوا من قطيعتنا وانزلوا عما فيها . وإن كانت كذباً دفعت إليكم ابن أخى » فوافقوه . وإذا بالصحيفة قد تآكلت وانمحت عباراتها عدا عبارة « باسمك اللهم » ، وحاول أبو جهل أن ينقض الاتفاق ، ولكن هبّ فى وجهه بعض رجالات قريش الذين أحزنتهم القطيعة فأرغموا على نقض الصحيفة . وعاد المسلمون إلى الصلاة عند الكعبة .

عاود الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، نشر الإسلام بين أهل مكة ،

---

(١) ابن هشام ج ١ ص ٣٧٥ .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٩٤ .

وكان كل اعتماده فى نشر الدعوة فى موسم الحج ، فكان يلتقى بالقبائل عند الكعبة ، ويدعوها إلى الإسلام ، ولكن عمه أبا لهب كان يصدّهم عن سماعه فيقول : « إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزّى من أعناقكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه » ، ولكن كثيراً من القبائل رأت فى الإسلام خير دين يخلصهم من الوثنية ورذائل الجاهلية .

وبعد فترة وجيزة ، أسرى بالرسول من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، حيث عرج به إلى السموات السبع ، وفى تلك الليلة فرض الله على المسلمين الصلوات الخمس[1] .

خروج الرسول والمسلمين للعمرة :

هاجر الرسول والمسلمون إلى يثرب (المدينة المنورة) ، واستمر الصراع بين المسلمين وقريش ، واتخذ هذا الصراع شكل حروب متصلة تسمى « الغزوات » أشهرها غزوة بدر ، وغزوة أحد ، وغزوة الخندق .

وفى ذى العقدة سنة ٦ هـ رأى الرسول أن يدخل مكة معتمراً ، لا غازياً ، ليعلن للعرب أن دينه الإسلامى يحترم الكعبة كما يحترمونها ، فيقرب بينه وبينهم ، ويزيل شيئاً من جفوتهم له . وخرج الرسول لأداء العمرة ومعه ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار ليس معهم سلاح إلاّ السيوف فى أغمادها ، وكان معهم هدى كثير ، يسوقونه إلى فقراء أهل مكة .

علم أهل مكة بخروج الرسول والمسلمين ، فأصابهم الذعر ، وأجمعت قريش وحلفاؤها على صدّه عن المسجد الحرام ، وبعثت خالد بن الوليد على رأس مائتى فارس لمنعه من دخول مكة . فقال الرسول : ويح قريش ،

---

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ٥ — ١٠ .

لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب [1] ؟ ثم أمر الرسول أصحابه أن يبتعدوا عن طريق خالد، ثم نزل فى الحديبية.

أرسلت قريش بعض رسلها يطلبون من الرسول العدول عن دخول مكة ، وعاد أحدهم إلى قريش ، وهو عروة بن مسعود الثقفى يقول : إنى قد جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه ، وإنى والله ما رأيت ملكاً فى قومه مثل محمد فى أصحابه . ورأى الرسول أن يفاوض قريشاً فى السماح للمسلمين بالعمرة ، لكنهم أبوا ذلك عليهم . وبعثت قريش بعض رجالها يهاجمون المسلمين على غرّة لكن المسلمين هزموهم .

لم تجد قريش مفراً من التفاوض مع الرسول فى الصلح ، فاتفقوا على : (١) أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين لمدة عشر سنين . (٢) أن يرد الرسول من يأتيه من قريش مسلماً بدون إذن وليه ، ولاتلتزم قريش برد من يأتى إليها من عند محمد . (٣) من أراد الدخول فى عهد قريش فله ذلك ، ومن أراد الدخول فى عهد محمد من غير قريش جاز له ذلك . (٤) أن يرجع الرسول هذا العام دون أن يؤدى العمرة ، فإذا كان العام القادم دخل مكة بعد أن تخرج منها قريش ليس معه إلاّ سلاح المسافر [2] .

كسب الرسول بهذا الصلح كسباً سياسياً عظيما ، إذ انتزع قريشاً من القبائل العربية التى كانت تقودها لقتاله ، وقد أراد الرسول منها أن تخلى بينه وبين غيرها من العرب ، فمكنته بهذه الموادعة مما أراد ، وفتحت أمامه الأبواب لنشر رسالته على نطاق واسع ، واعترفت بحق المسلمين فى

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ٢٧٨ .

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ٣٦٦ .

القدوم إلى الكعبة وأداء العمرة .

كما أخذت قريش ، بعد صلح الحديبية ، تغير نظرها إلى الرسول ، فأصبحت ترى أنه قرشى على الرغم من العداوة بينها وبينه ، يجمعه وإياها نسب واحد ، وصارت تعجب بعلو شأنه الدينى والسياسى . مما حمل بعض رجالاتها مثل عمرو بن العاص وخالد بن الوليد على الهجرة إلى المدينة واعتناق الإسلام .

وكان هذا الصلح بمثابة اعتراف من قريش بقوة الجماعة الإسلامية ، وإيذاناً بنهاية عهد الوثنية ، وتحرير الكعبة من أوثانها ، وهو ما حدث فعلا حينما تقدم الرسول من المدينة إلى مكة على رأس عشرة آلاف من المسلمين ، ودخل مكة دخول الفاتح ، وحطم أصنام الكعبة .

استفاد الرسول من صلح الحديبية ، فقد بدأ نشاطاً عظيما فى ميدانى السياسة والحرب ، فجاوز بدعوته حدود بلاد العرب ، فدعا ملوك الروم والفرس والحبشة وأمراء العرب إلى الإسلام ، كما أخذ يضم إليه قبائل العرب قبيلة بعد قبيلة ، ثم وجه ضربة قاضية إلى ألد أعدائه فى جزيرة العرب وهم يهود خيبر .

غضبت القبائل العربية على قريش لأنها انفردت بالصلح مع المسلمين ، فتخلت عن نصرتها ، وعمل الرسول على ضم هذه القبائل إلى الجماعة الإسلامية واحدة بعد أخرى . أما قريش فقد ظلت على عزلتها وجمودها فى الدين والسياسة ، وما لبثت أن أدركت عجز سياستها بعد هذا الصلح ، فرأت أن تترك أمرها ومصيرها فى يد القضاء والقدر .

حان الوقت الذى حددته معاهدة الحديبية لقيام الرسول والمسلمين بأداء العمرة فى مكة وقضاء ثلاثة أيام عند الكعبة . رحل الرسول مع عدد كبير من المسلمين يبلغ نحو ألفين ، وصحبوا معهم ستين من الإبل ليضحوا بها عند الكعبة . وكم تمنى أعداؤه من المشركين أن يمنعوا تقدمه نحو مكة

لولا ما بينهم من تعاهد ، فتركوه يتقدم نحو التلال المجاورة . وعندما أصبح الرسول قريباً من مكة ترك المسلمون أسلحتهم . وقام بحراستها مائتان من الجند المسلمين ، وقال الرسول : لا ندخل عليهم الحرم بالسلاح . ولكن نكون قريباً منه . فإذا رأينا من المشركين الغدر كان السلاح قريباً منا .

جلت قريش عن مكة . وصعدت إلى التلال المجاورة . وتقدم الرسول عليه الصلاة والسلام ممتطياً ظهر ناقته القصواء . يحيط به كبار الصحابة ، ومن خلفهم تقدم المسلمون . وهم جميعاً ينادون : لبيك لبيك . حتى إذا بلغ الرسول المسجد اضطجع بردائه وأخرج عضده اليمنى . ثم قال : اللهم ارحم امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة . ثم استلم الركن عند الحجر الأسود وهرول . وهرول أصحابه معه . فلما استلم الركن اليمانى مشى حتى استلم الحجر الأسود مهرولا من جديد ثلاثة أطواف ومشى سائرها ، ومن خلفه المسلمون يحتذون حذوه . ولما أتم المسلمون الطواف بالكعبة ، انتقل محمد على رأسهم إلى الصفا والمروة فسعى بينهما سبعاً . كما كان يفعل العرب من قبل ، ثم نحر الهدى عند المروة وحلق رأسه ، وأتم بذلك فرائض العمرة .

وفى اليوم التالى ، دخل الرسول إلى الكعبة ، وبقى بها حتى صلاة الظهر . ولقد كانت الأوثان لا تزال تحيط بالكعبة . واعتلى بلال ، مؤذن الرسول ، سقف الكعبة وأذن فى المسلمين لصلاة الظهر عندها ، وأم الرسول الألفين من المسلمين . وأقاموا جميعاً فى مكة ثلاثة أيام ، كما نصت معاهدة الحديبية ، زاروا فيها أهلهم وأصدقاءهم ، واطمأنوا على مصالحهم .

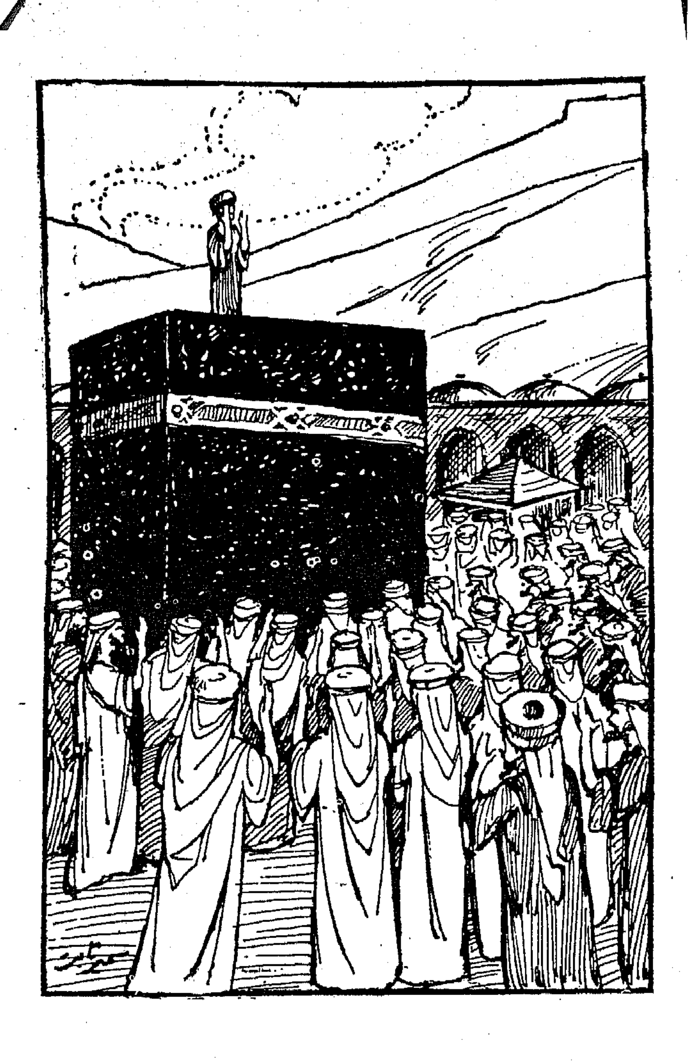
الكعبة بعد فتح مكة :

انتشر الإسلام فى معظم أرجاء الجزيرة العربية . وجالت خواطر كثيرة فى نفس محمد صلى الله عليه وسلم ، جعلته يفكر فى القيام بمشروع كبير . فقد تذكر وطنه الأصلى : وتذكر أسرته وأقاربه ، والسنوات السعيدة التى قضاها فى مكة التى ما زالت فى أيدى أعدائه المشركين ، وتذكر أن الكعبة التى يحج إليها أولاد إسماعيل لا تزال تحت سيطرة الوثنيين ، وعزم على أن يخلص بيت الله الحرام من أيدى المشركين ، فيجعله مكاناً لعبادة الله وحده ، ومقصداً للمسلمين .

نقض القرشيون معاهدة الحديبية ، فقد باغتوا خيام بنى خزاعة المسلمين وقتلوا عشرين مسلماً فبدأ المسلمون يستعدون للقتال فقد شعر القرشيون بالخوف من ازدياد قوى المسلمين المستمر ، ورأوا أن يتجنبوا الدخول معهم فى حروب ومعارك ، فبعثوا بقائدهم أبى سفيان إلى المدينة كسفير للسلام ، فقد كانوا يعرفون صلته بالرسول ، فقد كان الرسول متزوجاً من ابنته أم حبيبة .

وكانت مهمة أبى سفيان صعبة ، فقد كان عليه أن يذهب ليلتمس السلام ممن كان يقف بالأمس منه موقف العداء . والتمس أبو سفيان وساطة أبى بكر ثم على بن أبى طالب ، وابنته أم حبيبة ، دون جدوى وعاد أبو سفيان إلى مكة خائباً ، واستقبله القرشيون بالسخرية والاستهزاء .

أعدّ الرسول حملة عسكرية لفتح مكة ، وتحرير الكعبة من الأوثان ثم خرج الرسول على رأس عشرة آلاف مسلم ، وقاد عمر بن الخطاب الجيش عبر دروب بين الجبال غير مطروقة ، ونهى المسلمون عن إصدار صوت أو دقّ طبول حتى لا يعرف المشركون شيئاً عن تحركاتهم . وخلال الرحلة ، قدم على الرسول عمه العباس ومعه أسرته ، معلناً إسلامه . وقابله



الرسول بترحاب وحفاوة . وكان العباس يتولى السقاية بمكة . وأرسل العباس أسرته إلى المدينة . وصحب هو الجيش الإسلامى . ووصل الجيش إلى مرّ الظهران دون أن يكتشف المشركون أمره . وكان وصوله عند ما خيم الظلام ، فأقاموا خيامهم ، وسمح عمر لهم لأول مرّة أن يشعلوا النيران للإضاءة .

اعتنق أبو سفيان ، زعيم المشركين ، الإسلام ، وأراد أن يؤمن أهل مكة على مصيرهم ، وكان الرسول رحيما كريماً فقال : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن » . قال الرسول للعباس فى أمر أبي سفيان : احبسه بمضيق الوادى حتى يرى جنود الله تمرّ . وقف أبو سفيان مع العباس فى واد ضيق ، يشاهد كتائب المسلمين وأسلحتهم المختلفة ، وكان العباس يذكر له أسماء القبائل ، فكان أبو سفيان يبدى تعجبه من كثرة عددها ، ودقة نظامها ، وحماسة جندها ، فقد كان المسلمون قد تقدموا كثيراً فى الفنون الحربية .

ثم مر الرسول فى كتيبته الخضراء ، وفيها المهاجرون والأنصار ، فقال أبو سفيان : سبحان الله ، يا عباس من هؤلاء ؟ فقال العباس : هذا رسول الله فى الأنصار . قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً . فقال العباس : يا أبا سفيان إنها النبوة . ثم نصحه العباس قائلا : النجاة إلى قومك .

أسرع أبو سفيان إلى مكة ليخبر أهلها بما شاهده من قوة الرسول والمسلمين ، وما عرضه الرسول عليهم من أمان ويبين لهم عبث المقاومة ، فصاح فيهم : يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . ولما كان أبو سفيان ألد أعداء الرسول ، فقد كان لكلماته أثرها فى نفوس أهل مكة ، فلم يفكروا فى

المقاومة ، وباتوا ينتظرون قدوم محمد إلى مكة .

تقدم الرسول إلى أبواب مكة ، ممتطياً ظهر ناقته ، وعن يمينه سار أبو بكر ، وسار خلفه أسامة بن زيد . دخل محمد أبواب مكة عند شروق الشمس ، لا كدخول المنتصر الفائز ، بل دخول حاج ورع فى ملابس الإحرام ، وهو يرتل الآيات القرآنية الكريمة : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطاً مستقيما ، وينصرك الله نصراً عزيزاً) .

اتجه الرسول نحو الكعبة ، حيث تذكر أحداث الماضى . وكيف كانت الكعبة مكاناً مقدساً عند الأجداد ، وبيت الله الحرام ، وطاف الرسول حول هذا المكان المقدس سبع مرات ، وفى كل مرة يلمس الحجر الأسود . وأراد الرسول أن يدخل الكعبة ، ولكن عثمان بن طلحة كان قد أغلق أبوابها . وأراد على بن أبى طالب أن ينتزع المفاتيح من عثمان ، ولكن الرسول أمره بإعادتها إلى عثمان ، وكان يتولى حجابة الكعبة ، وتأثر عثمان من عطف الرسول ، فأعلن اعتناقه الإسلام واستمر يتولى الحجابة .

تفرغ الرسول لتطهير الكعبة مما حولها من أوثان ، وكان عددها يبلغ ثلثمائة وستين صنما ، فقام المسلمون بتحطيمها . وكان هبل أكبر هذه الأوثان ، وكان المشركون قد جلبوه من البلقاء فى سوريا يؤمنون أنه قادر على إنزال المطر ، الذى كان يهتم بنزوله سكان الصحراء القاحلة . كما كان هناك أوثان تمثل إبراهيم وإسماعيل ، وفى أيديهما الأزلام ، وقال الرسول عن تمثال إبراهيم : « قاتلهم الله حيث جعلوه شيخاً يستقسم بالأزلام » . وكانت هناك لوحات تصور الملائكة على صور نساء جميلات ، فحطم الرسول هذه اللوحات . وعثر الرسول على صورة لحمامة منحوتة على الخشب ، فحطمها بيديه وألقى بها على الأرض ، باعتبارها من مظاهر الوثنية .

وحطم صحابة الرسول باقى التماثيل والأصنام ، وهو يقول : (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً)[١] .

ومن الكعبة اتجه الرسول نحو بئر زمزم ، وكان العرب يقدسونها ، فقد فجّر المولى عز وجل هذه البئر لينقذ هاجر وابنها إسماعيل من الموت عطشاً ، وتوارث العرب تقديس هذه البئر . حتى إذا اقترب الرسول من البئر قدّم له العباس شربة ماء من البئر ، حتى إذا شربها أصبح ذلك سنة يتبعها المسلمون . وولى الرسول عمه أبا العباس منصب السقاية .

وعند الظهر ، أمر الرسول أحد المسلمين بأن يؤذن للصلاة من فوق الكعبة ، واتبع المسلمون هذه السنة ، واتجه الرسول بصلاته إلى الكعبة ، قبلة جميع المسلمين فى كل مكان وزمان .

تحدث الرسول إلى أهل مكة ، فأبدى رحمة وعطفاً ، وشرح لهم تعاليم العقيدة الإسلامية ، وأعلن انتصار المسلمين ، وتعالت صيحات المسلمين « الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلاّ الله ، محمد رسول الله » .

وبعد أن انتهى الرسول من الشعائر الدينية ، نزل من على جبل الصفا ، وقدم إليه أهل مكة ، رجالا ونساء ، يمرّون أمامه ، يعلنون اعتناقهم الإسلام ونبذهم الوثنية .

وكان الرسول رحيما عطوفاً ، فقد قدم إليه زعماء قريش ينتظرون حكمه عليهم ، فقال لهم الرسول : يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟ فقالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم . فقال الرسول : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

ودلت تصرفات الرسول فى مكة على أنه نبى مرسل لا على أنه قائد مظفر . فقد أبدى رحمة وشفقة على مواطنيه برغم أنه أصبح فى مركز

---

(١) سورة الإسراء آية ٨١ .

قوى ، ولكن توّج نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو[١] .

ولم يكتف الرسول بتطهير الكعبة ومكة من الأصنام ، بل أرسل بعض القواد المسلمين على رأس فرق من الجند ليقضوا على الوثنية بين القبائل المختلفة فى المدن والقرى المجاورة وينشروا الإسلام .

كان فتح مكة واستيلاء المسلمين على الكعبة من أكبر العوامل التى ساعدت على نجاح الدعوة الإسلامية ، فقد اعتقدت القبائل العربية التى رفضت الدعوة بادئ ذى بدء ، أن المسلمين تلحظهم عناية إلهية لا قبل لغيرهم بها ، فسارعوا إلى الإسلام ، ودخلوا فيه أفواجاً ، وعرفت سنة تسع الهجرية بعام الوفود لأن عدداً كبيراً من القبائل العربية وسكان المدن ، أخذت تفد فى هذه السنة وفوداً على الرسول تعلن اعتناقها الإسلام فى حضرته ، ثم عادوا إلى بلادهم بالجوائز التى اعتاد الرسول أن يمنحها لوفود القبائل العربية[٢] .

حج أبى بكر بالمسلمين إلى الكعبة :

كانت الوفود لا تزال تقدم إلى المدينة ، تعلن إسلامها ، ويلقنها الرسول تعاليم الإسلام . واقترب موعد الحج ، ولم يستطع الرسول أن يخرج بالمسلمين إلى الحج ، فالوفود تقدم تباعاً ، ولا يزال فى شبه الجزيرة العربية من لم يؤمن بعد بالله ورسوله . وما يزال بها بعض الكفار واليهود . والكفار على ما كانوا عليه فى الجاهلية ما يزالون يحجون إلى الكعبة فى الأشهر الحرم ، والكفار نجس . فليبق الرسول إذاً بالمدينة حتى يتم الله كلمته

(١) أرفنج : حياة محمد (من ترجمتنا) ص ٢٢٩ .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٩٤ — ٩٥ .

وحتى يأذن الله له بالحج إلى بيته . وليخرج أبو بكر فى الناس حاجاً [1] .

كان المشركون لا يزالون يحجون إلى بيت الله الحرام . وكان لا بدّ أن تتخلص الكعبة من قدوم هؤلاء المشركين كما تخلصت بالأمس من الأصنام ومظاهر الوثنية .

خرج أبو بكر أميراً للحج . على رأس ثلثمائة حاج . يصحبون عشرين من الإبل للتضحية بها عند الكعبة و بعد فترة قصيرة ، أمر رسول الله على بن أبى طالب أن يمتطى ظهر « الأضحى » إحدى الإبل السريعة . وأن يسرع فى طريقه إلى مكة ، حتى يصل إليها قبل قدوم الحجاج من جميع أرجاء بلاد العرب ، ليبلغهم سورة من القرآن الكريم نزل بها الوحى .

وقام علىّ بن أبى طالب بالمهمة خير قيام . فوصل إلى مكة قبل الوقوف على عرفة . وحينما اجتمع المسلمون فى منى . وقف علىّ يعلن أن الرسول قد بعثه ليبلغهم سورة التوبة التى نزل بها الوحى . وهى تبدأ بهذه الآيات الكريمة : (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين . وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم . إلاّ الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين . فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كلّ مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم . وإنْ أحدٌ من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه

---

(١) هيكل : حياة محمد ص ٤٥٤ .

ذلك بأنهم قوم لا يعلمون . كيف يكون للمشركين عهد عند الله ورسوله إلاّ الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إنّ الله يُحب المتقين)(١) .

وجاء فى السورة نفسها : (يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلةً فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم)(٢) .

قال على بن أبى طالب : أيها الناس ، إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلى مدّته . وأجل علىّ الناس أربعة أشهر بعد ذلك ليرجع كل قوم إلى بلادهم . ومن يومئذ لم يحج مشرك ، ولم يطف بالكعبة عريان .

حجة الوداع :

أبدى الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، رغبته فى الحج ، ولم يكن الرسول قد حج بعد الحج الأكبر وإن يكن قد اعتمر فأدى الحج الأصغر قبل ذلك مرتين . وأسرع المسلمون من جميع أرجاء بلاد العرب يلبون نداء الرسول . وامتلأت طرقات المدينة بالقبائل العربية التى قدمت من سائر المدن والقرى والجبال ، وامتلأت الوديان المجاورة بخيامهم . وكان هذا مظهراً رائعاً لانتصار العقيدة الإسلامية .

خرج الرسول مع آلاف من المسلمين ، وصحبوا عدداً كبيراً من الإبل ، وقد زينوها بالأزهار ليذبحوها عند الكعبة . وكان الرسول فى طريقه من المدينة إلى مكة يتوقف عند كل مسجد ليؤدى الصلاة ، وهو يرفع

(١ ، ٢) سورة التوبة .

صوته بالدعاء والشكر لله .

قضى المسلمون الليلة الأولى بعد رحيلهم من المدينة فى قرية ذى الحليفة حيث أحرم الرسول والمسلمون وتركوا سلاحهم . وفى الصباح الباكر من اليوم التالى ، بعد أداء صلاة الفجر ، امتطى الرسول ظهر ناقته (القصواء) حتى إذا وصل إلى وادى بيضة توجه الرسول إلى ربه ونادى ملبيا ، والمسلمون من ورائه : « لبيك اللهم لبيك . لا شريك لك لبيك . الحمد والنعمة والشكر لك لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك » .

وهذا الدعاء ، كما تذكر الروايات ، هو الذى توجه إبراهيم به من أعلى جبل أبى قبيص ، قرب مكة ، مبشراً بالدين الصادق . وتذكر الروايات أيضاً أن صوت إبراهيم كان من القوّة بحيث سمعه كل كائن حىّ فى العالم ، بل سمعه الجنين فى الرحم فقال : لبيك اللهم لبيك .

ولما بلغ المسلمون سرف ، وهى محلة فى الطريق بين المدينة ومكة ، قال محمد لأصحابه : من لم يكن منكم معه هدى فأحب أن يجعلها عمرة فليفعل ، ومن كان معه هدى فلا .

مضى الحجاج فى طريقهم ، وقد انتشروا فى مساحة كبيرة تبلغ عدة أميال فوق الجبال والوديان ، يتردد فيها نداؤهم وصلاتهم ، ولم يعد هناك أعداء يرهب المسلمون جانبهم ، فقد انتشر الإسلام فى كل مكان فى الجزيرة العربية . واتخذ الرسول نفس الطريق الذى اتبعه عند فتح مكة ، وما لبث أن دخلها من باب بنى شيبة .

أراد الرسول أن تكون مناسك الحج مثلا يحتذيه المسلمون فى السنوات التالية . وقد وصل الحجاج إلى مكة فى اليوم الرابع من ذى الحجة ، وتقدم الرسول والمسلمون إلى الكعبة . فاستلم الرسول الحجر الأسود فقبله ، وطاف بالبيت سبعاً ، هرول فى الثلاث الأولى منها على نحو ما فعل فى عمرة القضاء . وبعد أن صلى عند مقام إبراهيم عاد فقبل الحجر الأسود مرّة

أخرى ، ثم خرج من المسجد إلى ربوة الصفا ، ثم سعى بين الصفا والمروة.

وبعد أيام قليلة من وصول الرسول إلى مكة ، لحق به عليّ بن أبي طالب بعد عودته من اليمن ، ويذكر الطبرى أن عليا لم يكن معه هدى يضحى به فأشركه فى هديه ونحر الرسول الهدى عنهما .

وفى الثامن من ذى الحجة ، يوم التروية ، ذهب محمد صلى الله عليه وسلم إلى منى ، فأقام بخيامه فيها ، وصلى فروض يومه ، وقضى الليل حتى مطلع فجر يوم الحج ، فصلى الفجر وركب ناقته القصواء حين أشرقت الشمس ، وتوجه بها نحو جبل عرفات ، يتبعه المسلمون . حتى إذا غربت الشمس ، اتجه الرسول إلى بطن الوادى من أرض عرفة ، وهناك نادى فى الناس : « أيها الناس ، اسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً » .

فقد شعر الرسول بقرب منيته ، وأن هذه الحجة هى حجة الوداع ، فرأى أن يثبت تعاليم الإسلام فى عقول وقلوب المسلمين . ولم يكتف الرسول بأن لقن المسلمين تعاليم الإسلام ، بل لقنهم قواعد السلوك والأخلاق ومعاملة الناس .

ختم الرسول خطبته بقوله : « فاعقلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلغت وتركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً أمراً بيناً : كتاب الله وسنة رسوله . أيها الناس ، اسمعوا قولى واعقلوه . تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلاّ ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت ؟ » .

فأجاب المسلمون : « اللهم نعم » . فقال الرسول : « اللهم اشهد » .

حتى إذا انتهى الرسول من خطابه ، نزل عن ناقته القصواء ، وأقام حتى صلى الظهر والعصر ، ثم امتطاها حتى بلغ الصخرات ، حيث تلا على المسلمين الآية الكريمة : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم

نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً)[١] . وأدرك أبو بكر وبعض المسلمين أن الرسول موشك على لقاء ربه ، مما أثار حزنهم .

غادر الرسول عرفات ، وقضى ليلة بالمزدلفة ، وصلى بها الرسول العشاء ثم الفجر فى اليوم التالى ، ثم امتطى ناقته وبلال يقودها ، وأسامة على عجزها رافعاً ثوباً يظلله به من الحر . واتجه الرسول نحو وادى منى ليرمى بحصيات سبع كلا من الأعمدة الثلاثة القائمة هناك والمعروفة بالجمرات إحياء لذكرى إبراهيم الذى رمى بحصيات الشيطان الذى حاول ثلاثاً أن يوقفه فى هذا المكان .

أعتق الرسول ثلاثة وستين عبداً ، ونحر بيده ثلاثة وستين بعيراً ، وأمر على بن أبى طالب أن يوزع لحومها وجلودها على فقراء الحجاج . وقام معمر بن عبد بحلق رأس الرسول ، وبدأ بالشق الأيمن وانتهى بالشق الأيسر ثم طاف الرسول بالكعبة مرّة أخرى ، وقدم له عمه العباس بن عبد المطلب ، الذى كان يتولى السقاية ، شربة ماء من بئر زمزم . ثم بدأ الرسول والمسلمون رحلتهم إلى المدينة المنورة ، مغادراً مكة موطنه الأصلى على رأس قافلة الحجاج .

حتى إذا اقترب الرسول صلى الله عليه وسلم من المدينة المنورة صاح : « الله أكبر ، لا إله إلاّ الله ، وحده لا شريك له ، مالك الملك له الحمد والشكر ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده) . وهكذا انتهت حجة الوداع ، وهى آخر مرّة يحج فيها الرسول .

---

(١) سورة المائدة .

٨ ـ ابن الزبير يعيد بناء الكعبة

تهدم الكعبة :

أعلن الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير معارضتهما لتولى يزيد الخلافة الأموية بعد وفاة أبيه معاوية بن أبى سفيان إذ تحولت الخلافة من نظام الشورى والانتخاب إلى النظام الملكى الوراثى . وأمر الخليفة يزيد بن معاوية واليه بالمدينة أن يأخذ البيعة له بالخلافة من الحسين وابن الزبير باعتبار أنهما فى مقدمة زعماء المسلمين حينئذ ، ورفض الزعيمان البيعة وخرجا إلى مكة . ووجد ابن الزبير فى مكة الأمن والطمأنينة التى افتقدها فى المدينة ، واستطاع أن يكتسب عطف المسلمين وتأييدهم حينما قال لهم : « إنى عائذ بالبيت » .

لاذ ابن الزبير بالكعبة ، وسمى نفسه العائذ بالبيت ، وقام يصلى بجوار الكعبة ليلا ونهاراً ، فيطيل السجود ، ويكثر من التسبيح وذكر الله ، فأحبه المسلمون وأعجبوا بصلاحه وتقواه . وكان وجود ابن الزبير إلى جوار الكعبة يتيح له فرصة اجتماعه بالمسلمين الذين يقدمون إلى الكعبة للطواف والتبرك بها وأداء العمرة ، حيث يبث دعوته السياسية فيهم ، ويثير فيهم روح السخط على يزيد والخلافة الأموية .

استفحلت حركة عبد الله بن الزبير ، ورأى الخليفة الأموى أن يقف منها موقفاً حاسما . فبعث جيشاً بقيادة الحصين بن نمير لغزو الكعبة والقضاء على ابن الزبير . وتحصن ابن الزبير وأنصاره بالكعبة ، بعد أن

أحكموا مراصد مكة . وأبدى المسلمون جميعاً سخطهم لإقدام الجيش الأموى على غزو الكعبة ومكة .

حاصر الجيش الأموى ابن الزبير فى الكعبة ، وقذفها الحصين بالمنجنيق ، فتهدمت أجزاء كثيرة منها ، ثم امتدت إليها ألسنة من اللهب فحرقت أجزاء أخرى منها .

أذاع الأمويون أن ابن الزبير هو المسئول عما أصاب الكعبة ، على حين ألقى ابن الزبير وأنصاره التبعة على عاتق الأمويين . واختلف المؤرخون فيمن يقع عليه الاتهام .

أما المؤرخون الذين ألقوا بالمسئولية على عاتق جند الشام ، ففى مقدمتهم المسعودى[١] الذى ذكر أن جند الشام هم سبب تهدم وحرق الكعبة ، فوصف ما حدث فقال : « فتواردت أحجار المنجنيق والعرّادات على البيت ، ورمى الأحجار بالنار والنفط ومشاقات الكتان وغير ذلك من المحرقات ، وانهدمت الكعبة ، واحترقت البنية » . ويوجه كل من اليعقوبى[٢] وابن عساكر[٣] وابن طباطبا[٤] الاتهام أيضاً إلى جند الشام .

أما المؤرخون الذين وجهوا الاتهام إلى جند ابن الزبير، فمنهم الطبرى[٥] فروى أن أصحاب ابن الزبير كانوا يوقدون حول الكعبة ناراً تطاير منها الشرر ، فاحترقت ثياب الكعبة وخشب البيت . ويتهم المؤرخ البلاذرى[٦]

---

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ١٩ .

(٢) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ١٢٤ .

(٣) تاريخ ابن عساكر ج ٤ ص ٣٧٣ .

(٤) الفخرى ص ١٠٢ .

(٥) الطبرى ج ٤ ص ٣٨٣ .

(٦) أنساب الأشراف ج ٤ ص ٥٣ .

أتباع ابن الزبير بأنهم تسببوا فى حرق الكعبة . ولكن الطبرى والبلاذرى قصرا اتهامهما لجند ابن الزبير على اتهامهم بالتسبب فى حرق الكعبة ، أما تهدمها فكان نتيجة قذف جند الشام لها بأحجار المنجنيق .

ووقف بعض المؤرخين موقفاً محايداً . ومنهم ابن الأثير [١] الذى ذكر روايتين عن احتراق الكعبة . فيقول فى إحداهما إن بعض الناس ذهبوا إلى أن سبب حرق الكعبة يرجع إلى ما كان من قذف جند الشام لها بالمجانيق ، على حين زعم آخرون أن « الكعبة قد احترقت من نار كان يوقدها أصحاب عبد الله حول الكعبة ، وأقبلت شرارة هبت بها الريح فاحترقت ثياب الكعبة واحترقت ثياب البيت » . ولكن ابن الأثير يميل إلى تأييد الرواية الأولى .

وروى ابن كثير [٢] ثلاث روايات دون أن يرجح إحداها فقال : « فلما كان يوم السبت ثالث ربيع الأول سنة ٦٤ نصبوا المجانيق على الكعبة ورموها بالنار ، فاحترق جدار البيت فى يوم السبت . وقيل : إنما احترقت لأن أهل المسجد جعلوا يوقدون النار وهم حول الكعبة فعلقت النار فى بعض أستار الكعبة فسرت إلى أخشابها وسقوفها فاحترقت . وقيل : إنما احترقت لأن ابن الزبير سمع التكبير على بعض جبال مكة فى ليلة ظلماء فظن أنهم أهل الشام ، فرفعت نار على رمح لينظروا من هؤلاء الذين على الجبل ، فعلقت النار فى أستارها وأخشابها فاحترقت ، واسود الركن ، وانصدع فى ثلاثة أمكنة منها » .

أما العمرى [٣] فلا يتهم ابن الزبير أو القائد الأموى على السواء ،

---

(١) الكامل ج ٤ ص ٥٢ .
(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ١٢٥ .
(٣) مسالك الأبصار ~ ١ ص ٩٥ .

فيقول إن سبب حرق الكعبة « أن امرأة أرادت أن تجمر الكعبة ، فطارت شرارة من المجمرة فى أستارها فاحترقت » .

وقد حفظ التاريخ لنا رواية عبد الله بن الزبير عن سبب حرق الكعبة ، فيروى ابن قتيبة(١) أنه حين طلب الحصين ابن نمير من ابن الزبير ، بعد موت يزيد ، أن يسمح لجند الشام بالطواف بالبيت ، قال ابن الزبير له : وهل تركتم من البيت إلاّ مدرة . وكانت المجانيق قد أصابت ناحية البيت فهدمته ، مع الحريق الذى أصابه . ونحن نميل إلى الرأى القائل أن قذف الكعبة بأحجار المنجنيق قد نتج عنه اشتعال النيران بالكعبة .

ابن الزبير يعيد بناء الكعبة :

رحل القائد الحصين بن نمير بجيشه الأموى إلى الشام بعد موت الخليفة يزيد بن معاوية ، تاركاً الكعبة وقد تهدمت معظم أجزائها ، فأصبح أمر إعادة أبنائها من شأن عبد الله بن الزبير الذى أعلن نفسه خليفة فى بلاد الحجاز . فهدم ما تبقى منها سليما وأعاد بناءها من جديد . وقد عاد ذلك عليه بالفائدة والضرر فى وقت واحد .

فقد غضب المسلمون على جند الشام أن تسببوا فى تهدم الكعبة ، كما انتهكوا حرمتها إذ قذفوها بالأحجار ، وحمدوا لعبد الله بن الزبير قيامه بإعادة بنائها . فروى المؤرخ ابن الأثير (٢) : « لما احترقت الكعبة حين غزا أهل الشام عبد الله بن الزبير أيام يزيد تركها ابن الزبير يشنع بذلك على أهل الشام » . ثم أعاد ابن الزبير بناء الكعبة ، ولكن بعض المسلمين لم يرضوا عن أن ابن الزبير قد أحدث تغييرات على البناء الأول .

---

(١) الإمامة والسياسة جـ ٢ ص ٨ .

(٢) الكامل جـ ٤ ص ٨٧ .

أثارت رغبة ابن الزبير فى إعادة بناء الكعبة مشكلة كبرى له ، فقد حار فى الطريقة التى يتبعها فى بنائها من جديد : أيهدم الكعبة تماماً ثم يعيد البناء من جديد ؟ أم يحاول إصلاحها وترميمها ؟ وروى العمرى [١] حوار ابن الزبير مع أصحابه حينما حاولوا حلّ هذه المشكلة المعقدة ، فقال : « فشاور ابن الزبير من حضره فى هدمها ، فهابوا ذلك، وقالوا : نرى أن يصلح مَا وهَى منها ولا تهدّم . فقال : لو أن بيت أحدكم احترق لم يرض له إلاّ بأكمل إصلاح ، ولا يكمل إصلاحها إلاّ بهدمها . فهدمها حتى أفضى إلى قواعد إبراهيم ، فأمرهم أن يزيدوا فى الحفر ، فحرّكوا حجراً منها فرأوا تحته ناراً وهولا أفزعهم ، فبنوا على القواعد . . . وتمم بناءها وألصق بابها بالأرض ، وعمل لها خلفاً أى باباً من ورائها وأدخل الحجر فيها » .

وبذل ابن الزبير جهده فى تجميل الكعبة حتى تبدو فى أجمل مظهر . وعدّد المسعودى [٢] جهود ابن الزبير فى ذلك فقال : « وحمل إلى ابن الزبير من صنعاء الفسيفساء التى كان بناها أبرهة الحبشى فى كنيسته التى اتخذها هنالك ، ومعها ثلاث أساطين من رخام فيها وشى منقوش ، قد حشى النقش السندروسى وأنواع الألوان من الأصباغ ، فمن رآه ظنه ذهباً » .

عاب الأمويون على ابن الزبير هدمه الكعبة ، وزعموا أنه كان بوسعه ترميمها وإصلاحها . ولكننا لا نوافق على ما ذهبوا إليه ، فقد « كانت قد مالت حيطانها من حجارة المنجنيق » [٣] . مما يجعل ترميمها عسيراً ، إذ

---

(١) مسالك الأبصار ج ١ ص ٢٥ — ٢٦ .

(٢) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٩ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٨٧ .

قد تنهار جدران الكعبة فى أى وقت على من فيها . وكان من الضرورى ضمان سلامة هذه الجدران . فقد كانت الكعبة مقصد آلاف المسلمين كل عام ، حيث يتوافدون ويتزاحمون للطواف والتبرك بها . كما أن العمرى يذكر أنه سبق هدم وإعادة بناء الكعبة قبل ابن الزبير ثلاث مرات .

انتقد الأمويون ابن الزبير لأنه أحدث تغييرات فى بناء الكعبة ، فقد زاد فى ارتفاعها تسعة أذرع فأصبح ارتفاعها سبعة وعشرين ذراعاً ، كما جعل للكعبة بابين بعد أن كان لها باب واحد . وضرب عليها السور وأدخل فيها الحجر . وعابوا عليه أنه كان « أول من كسا الكعبة الديباج وكانت كسوتها المسوح والأنطاع ، وقد كان يطيبها حتى يوجد ريحها من داخل الحرم »[١] . ولكننا لا نوافق هؤلاء على بعض ما عابوه على ابن الزبير . فإن وجود بابين يسهل الدخول إلى الكعبة والخروج منها. كما أن المصادر القديمة تذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يريد أن يزيد من ارتفاع الكعبة إلى الحد الذى وصل إليه ابن الزبير . كما أن ابن الزبير لم يكن يدفعه فيما فعل سوى مرضاة الله والرسول والمسلمين .

وقد سوّغ المؤرخ المسعودى[٢] زيادات ابن الزبير فى الكعبة ، فقال : « وشرع ابن الزبير فى بناء الكعبة ، وشهد عنده سبعون شيخاً من قريش أن قريشاً حين بنت الكعبة عجزت نفقتهم فنقصوا من سعة البيت سبعة أذرع من أساس إبراهيم الخليل الذى أسسه هو وإسماعيل عليهما السلام . فبناه ابن الزبير وزاد فيه الأذرع المذكورة . وجعل فيه الفسيفساء والأساطين ، وجعل له بابين : باباً يدخل منه . وباباً يخرج منه » .

---

(١) تاريخ ابن عساكر جـ ٧ ص ٤١٣ .

(٢) مروج الذهب جـ ٣ ص ٢٩ — ٣٠ .

ويذكر العمرى [١] أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يريد أن يزيد فى بناء الكعبة ما زاده ابن الزبير ، فقال : « وذلك لأن خالته عائشة ، رضى الله عنها ، حدثته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ألم تر أن قومك قصرت بهم النفقة حين بنوا الكعبة فاقتصروا على قواعد إبراهيم . ثم قال : لولا حدثان قومك بالجاهلية لهدمتها وجعلت لها خلفاً وألصقت بابها بالأرض وأدخلت فيها الحجر . فقال ابن الزبير : فليس بنا عجز عن النفقة . فبناها على مقتضى حديث عائشة » .

ومهما يكن من أمر ، فقد احتفظت الكعبة بالشكل الذى أعاد ابن الزبير بناءها عليه ، حتى حاصر الحجاج بن يوسف الثقفى الكعبة الحصار الثانى فى عهد عبد الملك بن مروان .

الحجاج الثقفى والكعبة :

انتشرت دعوة ابن الزبير فى أرجاء الدولة الإسلامية ، ونجح فى السيطرة على جميع أمصارها عدا بلاد الشام التى احتفظت بولائها للخلافة الأموية . ونجح الخليفة الأموى مروان بن الحكم فى انتزاع مصر من ولاة ابن الزبير . ثم نجح ابنه عبد الملك فى الاستيلاء على بلاد العراق وقتل مصعب بن الزبير ، ثم بعث بقائده المشهور الحجاج بن يوسف الثقفى على رأس جيش كبير إلى بلاد الحجاز للقضاء على عبد الله بن الزبير .

بدأ الحجاج فى مناوشة عبد الله بن الزبير ليقف على قوته الحقيقية ، وليبث الرهبة والخوف فى نفوس أنصار ابن الزبير « فكان يبعث البعوث إلى عرفة فى الحل ، ويبعث ابن الزبير بعثاً فيقتتلون هنالك ، فى كل ذلك

---

(١) مسالك الأبصار ج ١ ص ٩٥ .

تهزم خيل ابن الزبير وترجع خيل الحجاج بالظفر »[١] .

أدرك الحجاج ضعف جند ابن الزبير ، ولذا عزم على المسير إليه ، فبعث إلى الخليفة عبد الملك بن مروان يستأذنه فى قتال ابن الزبير وحصار الكعبة ويخبره بضعف ابن الزبير وتفرق أصحابه ويطلب منه الأمداد[٢] . فلما وصل كتاب الحجاج إلى عبد الملك كبر وكبر معه من كان فى داره. ثم كتب عبد الملك إلى طارق بن عمرو يأمره بأن يلحق بمن معه من الجند بالحجاج فسار فى خمسة آلاف من أصحابه حتى لحق به .

تقدم القائدان نحو مكة ، فبلغوها فى ذى القعدة سنة ٧٢ هـ فى الوقت الذى كان المسلمون يستعدون فيه لأداء فريضة الحج. فنزل بقرب بئر ميمون ، وحج بالناس ، ولكنه لم يستطع الطواف بالكعبة أو السعى بين الصفا والمروة حيث منعه عبد الله بن الزبير من ذلك ، كما لم يستطع ابن الزبير وأنصاره أداء فريضة الحج . حتى إذا قارب موسم الحج من الانتهاء ، بدأ الحجاج يقذف الكعبة بالأحجار .

بعث عبد الله بن عمر بن الخطاب إلى الحجاج الثقفى ينهاه عن قذف الكعبة بالأحجار ويقول : اتق الله واكفف هذه الحجارة عن الناس ؛ فإنك فى شهر حرام وبلد حرام ، وقد قدمت وفود الله من أقطار الأرض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيراً . وإن المنجنيق قد منعهم عن الطواف ، فاكفف عن الرمى حتى يقضوا ما يجب عليكم بمكة[٣] . ورأى الحجاج أن ينتظر حتى ينتهى الناس تماماً من الحج .

فرغ موسم الحج ، فنادى الحجاج فى الناس أن ينصرفوا إلى بلادهم

---

(١) الطبرى جـ ٥ ص ٢٠ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل جـ ٤ ص ١٤٦ .
(٣) المصدر السابق .

التماساً للسلامة والنجاة من الأحجار التي يعزم الحجاج أن يقذفها على ابن الزبير . ثم بدأ الحجاج ينفذ وعده . وكان الوقت حينئذ شتاء ، فأخذت السماء تبرق وترعد ، ونزلت صاعقة على جيش الحجاج فقتلت عدداً كبيراً منهم . وشعر جند الشام بالخوف ، فقد اعتبروا هذه الصاعقة مظهراً لغضب السماء لانتهاكهم حرمة بيت الله الحرام ؛ ولذا أمسك الشاميون عن قذف الأحجار . وخشي الحجاج من عواقب تخاذل جنده ، فأقبل عليهم يشجعهم ويثير حماستهم ، وأخذ يقذف الأحجار بنفسه . وشاءت المقادير أن تعين الحجاج ، فنزلت صاعقة على جند ابن الزبير فقتلت كثيراً منهم ، فخطب الحجاج في هذه فقال : ألا ترون أنهم يصابون ، وأنتم على الطاعة وهم على خلاف الطاعة (١) ؟ !

أخذت الأحجار تتكاثر على الكعبة حيث اعتصم عبد الله بن الزبير وأصحابه ، فكانت تصيب مقتلا من كثير من رجاله ، فرأوا أنه لا طائل من وراء المقاومة ، وأن مصيرهم الموت إذا استمروا في القتال ، فخرج كثير منهم إلى الحجاج بن يوسف يطلبون منه الأمان ، فأجابهم إلى طلبهم ليشجع غيرهم على نبذ القتال .

واستمر عبد الله بن الزبير في مقاومة هجوم الجيش الأموي ، ولكن ما لبث أن أصابه حجر في جبينه ، فأنشد (٢) :

يا ربّ إن جنود الشام قد كثُروا
وهتكوا من حجاب البيت أستارا
يا ربّ إني ضعيف الركن مضطهد
فابعث إليّ جنوداً منك أنصارا

---

(١) الطبري ج ٥ ص ٣٠ .
(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٥٧ .

وسرعان ما تكاثر جند الشام على عبد الله بن الزبير وأنصاره من كل باب ، فسقط ابن الزبير صريعاً ، وتفرّق أنصاره يبتغون السلامة والنجاة ، وكان مصرعه فى ١٤ جمادى الأولى سنة ٧٣ هـ .

أعاد الحجاج بناء الكعبة وجعلها كما كانت قبل التجديد الذى أحدثه عبد الله بن الزبير بعد حصار الكعبة الأول . وجعل الحجاج للكعبة باباً واحداً كما أمره الخليفة عبد الملك بن مروان(١) . ووصف العمرى(٢) موقف عبد الملك والحجاج من إعادة بناء الكعبة فقال : « ولما قام عبد الملك بن مروان فى الخلافة ، قال : لسنا من تخليط أبى خبيب بشىء (يعنى عبد الله بن الزبير) . فهدمها (أى الكعبة) وأعادها على ما كانت عليه فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا فى ارتفاعها . ثم جاءه الحارث بن أبى ربيعة المخزومىّ ومعه رجل آخر ، فحدثاه عن عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديث المتقدم ، فندم وجعل ينكت بمخصرة فى يده الأرض ، ويقول : وددت أنى تركت أبا خبيب وما تحمل من ذلك . وتولى البناء فى زمن عبد الملك بن مروان ، الحجاج ابن يوسف الثقفى ، وهو البناء الخامس الموجود الآن (أى فى زمن العمرى) والذى هدمه الحجاج هو الزيادة وحدها . وأعاد الركنين ، وسدّ الباب الذى فتحه ابن الزبير ، وسدّه بين إلى الآن . وجعل فى الحجر من البيت دون سبعة أذرع . وعلامة ذلك فى داخل الحجر لوحان من مرمر منقوشان متقابلان فى الجانبين . وصار عرض وجهها ، وهو الذى فيه الباب ، أربعة وعشرين ذراعاً » .

---

(١) الطبرى جـ ٥ ص ٣٥ .

(٢) مسالك الأبصار جـ ١ ص ٩٧ .

بناء عبد الملك قبة الصخرة :

اتخذ عبد الله بن الزبير الحجاز مركزاً لحركته السياسية ولخلافته . وكان المسلمون يفدون إلى الكعبة فى مواسم الحج والعمرة ، فيلقون ابن الزبير ، فكانوا لا يجدونه إلاّ قائماً بالصلاة أو طائفاً بالكعبة ، ونجح فى أن يبهر أنظارهم بزهده وبساطته وصلاحه وتقواه . فقارن أهل الشام بين ما شاهدوه من ابن الزبير وبين مظاهر الملك والترف التى عاشها الخلفاء الأمويون . وانتهز ابن الزبير فرصة قدوم هؤلاء الحجاج ، فأخذ يبث دعوته فيهم ، ودعاهم لمناصرته وتأييده . وكان هؤلاء الحجاج والمعتمرون لا يعودون إلى بلادهم إلاّ وتحدثوا عما رأوه من أحوال ابن الزبير ، مشيدين بفضائله ، معدّدين سجاياه ، مما أدى إلى انتشار دعوة ابن الزبير فى شتى أرجاء الدولة العربية الإسلامية .

وكان ابن الزبير لائذاً بالكعبة ، يسمى نفسه « العائذ بالبيت » مما أثار عطف المسلمين عليه . وزاد من عطفهم عليه ، كما أثار العاطفة الدينية عامة ، إقدام الخلفاء الأمويين على غزو مكة وحصار الكعبة وقذفها بالمنجنيق . فى نفس الوقت الذى استمات فيه ابن الزبير فى الدفاع عن الكعبة . وقدمت جماعات عديدة من المسلمين تحالف ابن الزبير لتقف إلى جانبه فى صدّ الجيوش الأموية عن غزو الكعبة ومكة ، وقد قدمت الخوارج الأزارقة ، وقدم المختار ابن أبى عبيد الثقفى زعيم الشيعة بالعراق ، بل بعث نجاشى الحبشة فرقة من جنده تدافع عن الكعبة . وكان بعض المسلمين حين يقدمون إلى مكة للحج أو الاعتمار ، ويستمعون لآراء ابن الزبير يعلنون تأييدهم له وينضمون إلى حركته ولا يعودون إلى بلادهم . بل إن كثيراً من أهل الشام تظاهروا بالخروج إلى الحجاز للحج ، وانضموا إلى ابن الزبير .

شعر عبد الملك بن مروان بخطورة إقامة ابن الزبير فى مكة إلى جانب الكعبة وحاول صرف المسلمين عن الرحيل إلى مكة كيلا يلتقوا بابن الزبير ، ولكنه لم يكن بقادر أن ينهاهم عن أداء فريضة الحج وهى من أركان الإسلام . وأخذ يبحث عن حلّ آخر ، حتى توصل إلى فكرة بناء قبة الصخرة .

بنى عبد الملك قبة الصخرة فى بيت المقدس ودعا المسلمين إلى الحج إليها ، ونهاهم عن الحج إلى الكعبة فى مكة . ورَوىٰ المؤرخ اليعقوبى (١) تاريخ هذا الحدث فقال : « ومنع عبد الملك أهل الشام من الحج ، وذلك أن ابن الزبير كان يأخذهم إذا حجوا بالبيعة . فلما رأى عبد الملك ذلك ، منعهم من الخروج إلى مكة فضجّ الناس ، وقالوا : تمنعنا من حج بيت الله الحرام وهو فرض من الله علينا . فقال لهم : هذا ابن شهاب الزهرى يحدثكم أن رسول الله قال لا تشد الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ومسجدى ومسجد بيت المقدس وهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام ، وهذه الصخرة التى يروى أن رسول الله وضع قدمه عليها لما صعد إلى السماء تقوم لكم مقام الكعبة ، فبنى على الصخرة قبة وعلق عليها ستور الديباج وأقام لها سدنة ، وأخذ الناس بأن يطوفوا حولها كما يطوفون حول الكعبة ، وأقام بذلك أيام بنى أمية » .

ويؤيد الروحى (٢) هذه الرواية فيقول : « فلما ولى عبد الملك ابن مروان منع الناس من الحج من أن ابن الزبير كان يأخذ الناس بالبيعة إذا حجوا ، فضج الناس لما منعوا الحج ، فبنى عبد الملك قبة الصخرة ، وكان الناس يحضرونها يوم عرفة ويقفون عندها » .

---

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ٧ — ٨ .

(٢) بلغة الظرفاء فى ذكرى تواريخ الخلفاء ص ٢٠٢ .

كان اليعقوبى أول مؤرخ روى قصة بناء عبد الملك قبة الصخرة . أما الروحى (١) فلا شك فى أنه نقل هذه الرواية عنه . ولكن الطبرى والمسعودى وابن الأثير وابن قتيبة لم يتحدثوا عن هذه القصة . ويذهب بعض المؤرخين المحدثين إلى أن الوليد بن عبد الملك هو الذى بنى قبة الصخرة . وذهب بعضهم مذاهب أخرى ، منها أنها من بناء هيلانة أم قسطنطين معتمدين فى ذلك على أن بناء هذه القبة لا يتمشى مع الفن العربى ، وإنما هو مطابق للفن البيزنطى . ولكن معظم المؤرخين المحدثين يؤيدون الرواية القائلة بأن عبد الملك هو الذى بنى قبة الصخرة ، ويميلون إلى الأخذ برواية اليعقوبى ، ويعتمدون فى ذلك على أن النقش الموجود على قبة الصخرة يقطع بأن تاريخ البناء هو سنة ٧٢ هـ أى فى عصر عبد الملك .

٩ — اهتمام الدول الإسلامية بالكعبة

فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين :

اهتم الخلفاء الراشدون بالمسجد الحرام المحيط بالكعبة ، فيذكر العمرى (٢) : « كان المسجد الحرام ، أعنى المحيط بالكعبة فناء لها وفضاء للطائفين . ولم يكن له على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر جدار يحيط به . فضيق الناس على الكعبة وألصقوا دورهم بها . وكانت الدور محدقة بالكعبة ، وبين الدور أبواب يدخل الناس من كل ناحية » . حتى إذا تولى عمر بن الخطاب الخلافة قال : لا بدّ لبيت الله من فناء ،

(١) انظر كتابنا (عبد الله بن الزبير) تجد كثيراً من التفاصيل .
(٢) مسالك الأبصار جـ ١ ص ١٠٥ .

وإنكم دخلتم عليه ، ولم يدخل عليكم . فوسع المسجد ، واشترى الدور المحيطة بالكعبة وهدمها وزادها فى المسجد. واتخذ للمسجد جداراً قصيراً دون القامة ، ووضع فيه القناديل .

ولما تولى عثمان بن عفان الخلافة ، ابتاع عدّة منازل وهدمها ووسع المسجد ، وبنى الأروقة للمسجد . وزاد عبد الله بن الزبير فى مساحة المسجد واشترى منازل بأكثر من عشرة آلاف دينار ، وجعل فى المسجد عمداً من الرخام .

واهتم الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان بعمارة المسجد الحرام ، وإن لم يزد فيه ، ورفع جداره ، وجلب إليه السوارى على سفن رحلت فى البحر الأحمر إلى جدّة ، وسقفه بالساج .

ولما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة ، بعث إلى واليه على مكة خالد بن عبد الله القسرى بستة وثلاثين ألف دينار ، فضرب منها على باب الكعبة صفائح الذهب ، وعلى الميزاب ، وعلى الأساطين فى جوف الكعبة ، وعلى أركانها . ولذا يذكر المؤرخون أن الخليفة الوليد هو « أوّل من ذهّب البيت فى الإسلام »(١) . وكان عبد المطلب فى العصر الجاهلى قد حلى الكعبة بغزالين ذهبيين كان قد عثر عليهما فى بئر زمزم عند قيامه بإعادة حفرها ، فضربهما فى أبواب الكعبة .

وذكر العمرى أن الذهب الذى بعثه الوليد بن عبد الملك لتحلية الكعبة مصدره مائدة سليمان بن داود ، وكانت من الذهب والفضة ، وقد حملت إليه من طليطلة فى الأندلس ، وكان لها أطواق من الزبرجد والياقوت .

كما أمر الوليد بفرش جوف الكعبة بالرخام الأبيض والأخضر ،

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٩٨ .

كما وزّر جدران الكعبة بالرخام . واهتم الوليد أيضاً بتوسيع المسجد الحرام ، وبعث إليه بالرخام والأحجار اللازمة من بلاد الشام .

فى العصر العباسى :

اهتم الخلفاء العباسيون بالكعبة وسائر الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة ، وحرصوا على تيسير الحج ، وإنشاء الطرق والبريد بين مكة والمدينة وبين بلاد اليمن جنوباً وبلاد العراق شمالا ، وزودوا هذه الطرق بالماء ليرتوى الحجاج منه ، وعملوا على التوسيع على أهل مكة فزادوا فى أعطياتهم وأغدقوا عليهم الصلات والمنح .

زاد الخليفة العباسى الثانى المنصور فى المسجد الحرام ، وجعل فيه أعمدة الرخام . كما أمر الخليفة الثالث المهدى بالزيادة فى المسجد الحرام ، فدخلت فيه دور كثيرة ، وتولى أمر ذلك يقطين بن موسى ، واستمر البناء حتى وفاة المهدى(١) . وعهد المهدى إلى يقطين بتوفير المياه فى الطرق الموصلة إلى مكة . ونزع المهدى كسوة الكعبة التى كانت عليها ، وكساها كسوة جديدة ، ويروى الطبرى أن حجبة الكعبة فما ذكر رفعوا إليه أنهم يخافون على الكعبة أن تهدم لكثرة ما عليها من الكسوة ، فأمر أن يكشف عنها ما عليها من الكسوة حتى بقيت مجرّدة ، ثم طلى البيت كله بالخلوق ، وذكر أنهم لما بلغوا كسوة هشام وجدوها ديباجاً تخيناً جيداً ، ووجدوا كسوة من كان قبله عامتها من متاع اليمن » .

وكانت مواكب الحج من أعظم مواكب الخلفاء العباسيين ، حيث يجتمع ببغداد الحجاج من مختلف الأمصار الإسلامية الشرقية ، وخاصة

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٣١٠ .

(٢) الطبرى ج ٦ ص ٣٦٦ .

أهل العراق وفارس وخراسان وغيرها . وقد أعدّوا عدتهم من الإبل والكسى والطعام . ويتقدم الموكب هوادج تعلوها قباب مزينة بالديباج المطرز بالذهب ، يقيم فى إحداها أمير الحج .

واهتم الخليفة العباسى هارون الرشيد بالكعبة والحج ، فكان يحج سنة ، ويغزو سنة ، وكان إذا حج يحج ماشياً ، ويتولى الإنفاق على عدد كبير من الحجاج .

ويذكر المؤرخون أن الرشيد سأل الإمام مالك فى هدم الكعبة وردّها إلى بناء عبد الله بن الزبير ، فقال مالك : يا أمير المؤمنين ، لا تجعل كعبة الله ملعبة للملوك ، لا يشاء أحد أن يهدمها إلاّ هدمها . فترك الرشيد الكعبة كما هى .

وبقيت الكعبة على بناء الحجاج بن يوسف ، وكان المسلمون يدعمون البناء كلما اعتراه الوهن ، حتى كانت العمارة التى تغير فيها سقفها فى زمن السلطان سليمان سنة ٩٦٠ هـ ، ثم العمارة الترميمية التى حدثت فى عهد السلطان أحمد سنة ١٠٢١ هـ .

ولما تولى الخليفة العباسى الأمين ، بعد وفاة أبيه الرشيد ، علم أن الذهب الذى حلى به الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك قد دقّ ، فبعث أحد عماله ، وأعطاه ثمانية عشر ألف دينار ليضرب بها صفائح على باب الكعبة . وخلع هذا العامل ما كان على الباب من الصفائح وزاد عليها دنانير الأمين ، وضرب الصفائح والمسامير وحلقتى الباب والقبة ، وأصبح ما على الكعبة من الذهب ثلاثة وثلاثون ألف مثقال (١) .

---

(١) العمرى : مسالك الأبصار ج ١ ص ٩٩ .

إعادة بناء الكعبة فى العصر العثمانى :

حينما تولى السلطان سليمان العثمانى (سنة ٩٦٠ هـ) غير سقف الكعبة ، كما اهتم السلطان أحمد (١٠٢١ هـ) بترميم الكعبة . حتى إذا كانت سنة ١٠٣٩ هـ شهدت مكة سيولا استمرت يومين ، ودخلت مياهها إلى المسجد الحرام والكعبة ، حتى إذا انحسر الماء ضعفت جدران الكعبة ، وخاصة الجدار الشمالى والشرقى والغربى . وأمر أمير مكة بإخراج القناديل الذهبية العشرين ، وتقدم مع أهل مكة ينظفون الكعبة من الأحجار المتساقطة ، واحتاروا فيما يفعلون ، ورأوا الرجوع إلى السلطان العثمانى .

تألم المسلمون فى أرجاء العالم الإسلامى مما أصاب الكعبة ، ولم ينتظر والى مصر محمد باشا الألبانى ما يشير به السلطان العثمانى مراد الرابع ، حتى لا يستفحل تصدع الكعبة ، ولاقتراب موسم الحج ، فبعث بمندوبين عنه إلى مكة .

وعادت السيول مرّة أخرى ، مما أدى إلى ازدياد تصدّع الجدار الغربى ، ولذا استقر الرأى على هدم ما بقى من جوانب الكعبة ، ولم يقع خلاف إلاّ على ركن الحجر الأسود . ولكن المهندسين رأوا أن هذا الركن يوشك أن ينقض كذلك ، ولذا كفّ القوم عن التردد ، ورأوا هدم البيت كله ، ليقيموا بناءه ثانياً قويا .

قام بعمارة البيت جماعة من المهندسين والعمال المصريين ، واستمر البناء ستة أشهر من عام ١٠٤٠ هـ ، وأنفقوا فى سبيل ذلك أموالا كثيرة ، ولم يكونوا يعيدون من الأحجار التى بنى بها ابن الزبير الكعبة إلاّ ما وجدوه ما يزال صلباً قويا ، أما ما وهن أو ضعف فكانوا يستبدلون به غيره .

ثم جاء دور إعادة الحجر الأسود إلى مكانه ، وكان هذا الحجر

قد أصابه بعض التصدع فى عهد ابن الزبير ، فعالجوه إذ ذاك بتقويته بسيور من الفضة .

ولما تمّ إعادة بناء الكعبة ، كتبوا بذلك محضراً أرسلوه إلى مصر ، فيه شهادة المكيين بحسن عمارة الكعبة ، وفى ذلك اعتراف بما كان لمصر من مجهود فى هذه العمارة فاق كل مجهود قامت به أية أمة إسلامية أخرى ، فقد أرسلت مصر جميع ما يلزم لهذه العمارة وأنفقت ستة عشر ألفاً من الجنيهات(١) .

وفى سنة ١٢٧٣ هـ أرسل السلطان العثمانى عبد المجيد إلى الكعبة ميزاباً من الذهب ، وهو الموجود بها الآن .

١٠ — كسوة الكعبة على مرّ العصور

أول كسوة :

كان أول من كسا الكعبة هو (تبع أبو كرب أسعد) الملك العربى اليمنى الحميرى . ويروى العمرى(٢) أن تبعاً رأى فى نومه أنه يكسو الكعبة ، ولذا حين مرّ بمكة راجعاً من غزوته ليثرب سنة ٢٢٠ قبل الهجرة ، حقق رؤياه ، وكسا الكعبة وجعل لها باباً ومفتاحاً . ويذكر العمرى أنه بدأ يكسوها بالمسوح والأنطاع ، ثم خشى أن يؤثر ذلك على بناء الكعبة ، فكساها « الملاء والوصائل » ، وهى ثياب موصلة من ثياب اليمن . وأنشد تبع حين كسا الكعبة :

---

(١) الهجرسى : كتاب الحج ص ٣٤ .

(٢) مسالك الأبصار جـ ١ ص ١٠١ .

وكسونا البيت الذى حرم الله ُملاءً معضّدا وبرودا
فأقمنا من الشهر عشرا وجعلنا لبابه إقليدا
ونحرنا بالشعب ستة ألف فترى الناس نحوهن ورودا
ثم سرنا عنه نؤم سهيلا فرفعنا لواءنا معقودا

وتبعه خلفاؤه ، فكانوا يكسونها بالجلد والقباطى (وهو قماش مصرى) زمناً طويلا ، ثم أخذ الناس يقدمون إليها هدايا من الكساوى المختلفة ، فيلبسونها على بعضها ، فكان إذا بلى ثوب وضع عليه ثوب آخر ، حتى جاء قصى بن كلاب فوضع على القبائل مبلغاً من المال لكسوتها سنوياً ، واستمر أبناؤه بعده على هذا التقليد . وكان أبو ربيعة بن المغيرة قبل الإسلام يكسوها سنة ، وقبائل قريش تكسوها أخرى ، فسمى بذلك العدل ، لعدله بين قبائل قريش فى كسوة الكعبة (١) .

وروى العمرى (٢) أن خالد بن جعفر بن كلاب كان أول من كسا الكعبة بالديباج . وممن كسوها بالديباج أيضاً نُتيلة بنت جناب ، أم العباس بن عبد المطلب ، وكان العباس قد ضلّ الطريق وهو صغير ، فنذرت أمه إن وجدته أن تكسو الكعبة بالديباج .

كسوة الرسول والخلفاء :

روى ابن هشام (٣) أن الكعبة فى عهد الرسول كانت تكسى بالقباطى ، وهى ثياب بيض كانت تصنع فى مصر ، ثم كسيت بالبرود وهى ضرب

---

(١) المجرسى : كتاب الحج ص ٣٩ .
(٢) مسالك الأبصار ج ١ ص ٩٩ .
(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢١١ .

من ثياب اليمن .

ثم قام بكسوة الكعبة كل من عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الله بن الزبير . وكساها معاوية بن أبى سفيان بالديباج مرتين فى يوم عاشوراء . ثم كساها الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان .

وجرت عادة الخلفاء الأمويين على وضع الكسوة الجديدة فوق الأكسية القديمة ، حتى إذا تولى الخليفة العباسى المهدى ، شكا إليه سدنة الكعبة ، إذ خشوا أن يؤثر تكاثر الأكسية على بناء الكعبة ، فأمر المهدى برفع الأكسية القديمة ، وإبدالها بكسوة جديدة كل سنة ، وأصبحت سنة تتبع طوال العصور التالية .

وقام الخليفة العباسى المأمون بكسوة الكعبة ثلاث مرّات ، فكان يكسوها الديباج الأحمر يوم التروية ، والقباطىّ يوم هلال رجب ، والديباج الأبيض يوم سبع وعشرين من رمضان(١) .

وكان سائر الخلفاء العباسيين يكسون الكعبة عادة بالحرير الأسود ، حتى إذا ضعفت الدولة العباسية صار يكسو الكعبة تارة حكام مصر وتارة أخرى حكام اليمن ، ثم انفرد حكام مصر بكسوة الكعبة .

الكسوة المصرية للكعبة :

أمر الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، بعد فتحه مصر سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) بعمل كسوة للكعبة ، لينافس خلفاء بغداد العباسيين . وكانت هذه الكسوة مربعة الشكل من ديباج أحمر ، وسعتها مائة وأربعون شبراً ، وكان فى حافاتها اثنا عشر هلالا ذهبياً ، فى كل هلال أترجة ذهبية ، وفى كل منها خمسون درة تشبه بيض الحمام فى الكبر ، كما

---

(١) العمرى : مسالك الأبصار جـ ١ ص ١٠٠ .

كان فيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق . وقد نقش فى حافاتها الآيات التى وردت فى الحج ، والآية ٩٥ من سورة آل عمران ، والآية ٣ من سورة براءة ، بحروف الزمرد الأخضر ، وزينت هذه الكتابة بالجواهر الثمينة . وكانت هذه الكسوة معطرة بمسحوق المسك[١] .

تحدث العمرى[٢] عن كسوة الكعبة كما شاهدها عياناً فقال : « وهى الآن تُكسى فى العام مرّة واحدة فى وقت الموسم ، وتحمل إليها الكعبة من الخزانة السلطانية بالديار المصرية ، صحبة الركب فيتولى ذلك أمراء الركب . ويحضرون بأنفسهم فتكسى ، ويأخذ الأشراف وبنو شيبة الكسوة العتيقة ويقتسمونها . ويأخذون فى كل قطعة منها أوفر الأعواض . وتحمل إلى سائر البلاد للبركة . . . ولما حججت سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة ، صعدت أنا وأمراء الركب المصرى لتلبيس الكعبة الشريفة ، حتى كنا على سطحها . فرأيته مبلطاً بالمرمر والرخام الأبيض ، ومن جوانبه جُدُرٌ قصار فيها حلقٌ لمرابط الستور ، تجرّ فيها الكسوة بحبال ، ثم تربط فى تلك الحلق » .

ووصف الرّحالة ابن بطوطة[٣] كسوة الكعبة فقال : وفى يوم النحر بعثت كسوة الكعبة الشريفة من الركب المصرى إلى البيت الكريم فوضعت فى سطحه . فلما كان اليوم الثالث بعد النحر أخذ الشيبيون فى إسبالها على الكعبة الشريفة . وهى كسوة سوداء حالكة من الحرير مبطنة بالكتان ، وفى أعلاها طراز مكتوب فيه بالبياض (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً) . الآية . وفى سائر جهاتها طرز مكتوب بالبياض

---

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٤ .
(٢) مسالك الأبصار ج ١ ص ١٠٠ .
(٣) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٣١ .

فيها آيات من القرآن ، وعليها نور لائح مشرق من سوادها . ولما كسيت شمرت أذيالها صوناً من أيدى الناس. والملك الناصر هو الذى يتولى كسوة الكعبة الكريمة ، ويبعث مرتبات القاضى والخطيب والمؤذنين والفراشين والقومة ، وما يحتاج إليه الحرم الشريف من الشمع والزيت فى كل سنة» .

وطوال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، كانت مصر ترسل الكسوة للكعبة سنوياً ، وتتألف من ثمانى ستائر من الحرير الأسود ، وقد كتب عليه بالنسيج فى كل مكان منه (لا إله إلاّ الله محمد رسول الله). وطول الستارة نحو ١٥ متراً ومتوسط عرضها خمسة أمتار وعدّة سنتيمترات ؛ وكل ستارتين تعلقان على جهة من جهات الكعبة فتربطان من أعلاها فى حلقات من الحديد ، ثم تربطان إحداها بالأخرى بعرى وأزرار ، فإذا انتهى تشبيكها كلها صارت كالقميص المربع الأسود .

ثم يوضع على محيط الكعبة فوق هذه الستائر فيما دون ثلثها الأعلى حزام يسمى رنكا مركب من أربع قطع مصنوعة من المخيش المذهب مكتوب فيه بالخط الجميل آيات قرآنية . ومكتوب على هذا الحزام من الجهة التى فيها باب الكعبة (بسم الله الرحمن الرحيم . وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود . وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم) .

ومكتوب فى الجهة التى تليها من جهة الحجر الأسود (بسم الله الرحمن الرحيم . قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم) ، (بسم الله الرحمن الرحيم . وإذ بوأنا لإبراهيم

مكان البيت أن لا تشرك بى شيئاً وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود . وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) .

ومكتوب فى الجهة المقابلة للمقام المالكى : (ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ، ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق) .

وكانت الكسوة تصنع فى مصر سنوياً بدار فسيحة فى حىّ الخرنفش بالقاهرة ، وكانت ميزانية هذه الدور فى مطلع القرن العشرين حوالى ٤٥٥٠ جنيهاً .

ويتبع هذه الكسوة ستارة باب الكعبة من خارجها ويسمونها البرقع ، وستارة باب منبر الحرم الشريف ، وهى من الأطلس المصنوع بالمخيش الذهبى والفضى .

وحينما كانت تصل الكسوة من مصر إلى مكة تسلم للشيبى القائم بسدانة الكعبة بإشهاد شرعى يحضره الكبراء والعلماء فتبقى فى منزله إلى صباح يوم عيد النحر ، فيؤتى بها على أعناق الرجال وتعلق على الكعبة بعد إنزال الكسوة القديمة ، ويكون المسجد خلواً من الناس لأن معظمهم يكون بمنى ، ولا يبقى فى مكة منهم إلاّ نفر قليل .

أما الكسوة القديمة ، فيرسل المقصبّ منها إلى شريف مكة ، أما غير المقصب فيأخذه الشيبى فيبيعه للحجاج للتبرك[1] .

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين جـ ٨ ص ١٥٠ .

المحمل المصرى :

وما دمنا نعرض لكسوة الكعبة ، لا بدّ أن نعرض للمحمل الذى كان يحمل الكسوة إلى الكعبة بمكة . ويبدأ تاريخ المحمل إلى حوالى سنة ٦٤٥ هـ ، فقد رحلت شجرة الدر ، زوجة السلطان الأيوبى الأخير الصالح أيوب ، إلى مكة لأداء فريضة الحج ، فركبت هودجاً ، واحتفل بسفرها احتفالا شائقاً ، وأصبح ذلك سنة متبعة سنوياً . وحذت بعض الأقطار الإسلامية حذو مصر ، فكانت تبعث محملا مشابهاً فى موسم الحج ، حتى توقفت هذه العادة أخيراً اكتفاء بإرسال الكسوة إلى الكعبة .

اهتم الفاطميون بالمحمل ، وبلغت نفقاته أكثر من مائتى ألف دينار ، واستمر الاهتمام به فى عصر المماليك ، وكانت وظيفة أمير الحج فى المرتبة الثالثة من مراتب الدولة ، وكان صاحبها مرشحاً لأن يكون حاكماً للقاهرة ، وهو المنصب الذى يلى منصب السلطان المملوكى مباشرة . وقد بلغ من إكبار ملوك دولة المماليك للمحمل أنهم أمروا جميع حكام البلاد التى كان يمرّ عليها فى طريقه بأن يقبلوا خفّ جمل المحمل عند استقباله ، واستمر أمراء مكة يقبلونه حتى أعفاهم من ذلك السلطان جقمق فى سنة ٨٤٣ هـ .

وفى القرن التاسع عشر ، كانت القاهرة تحتفل بخروج المحمل . فيسير الجمل الحامل للهودج ، وحوله وأمامه الجنود الراكبة والراجلة ، حتى ينتهى الموكب إلى ميدان القلعة ، حيث يحتشد وجوه القوم . وتطلق المدافع تحية للمحمل ، ثم يتابع الموكب سيره إلى العباسية ، حيث يتفرق الناس وينزل ركب المحمل إلى خيامهم فى فضاء بالعباسية ، وينصب المحمل فى وسط ساحتها ليزوره من يريد التبرك به .



ثم يرحل المحمل من العباسية إلى السويس على قطار خاص ، ومنها بحراً إلى جدّة ، ثم إلى مكة .

وعند عودة المحمل كانت الحكومة المصرية تحتفل به رسمياً، ويسير الموكب من العباسية إلى القلعة ، وتطلق المدافع . وتحفظ كسوة المحمل بمخزن وزارة المالية . وكانت تبلغ نفقات المحمل فى مطلع القرن العشرين نحو خمسين ألفاً من الجنيهات المصرية .

وكان من ضمن وظائف المحمل وظيفة اسمها أمين الكساوى والحلوى ، ويقوم بتوزيع الحلوى والكساوى التى كانت ترسل إلى أهل مكة ، ثم استعيض عنها بأثمانها . وكان يخرج معه موظف يسمّى (مأمور الذخيرة) فى عهدته كميات كبيرة من (البقسماط) ليسدّ الحاجة إذا قلت الأقوات بمكة . وكان للمحمل عشرون جملا تحفظ فى مكان خاص ببولاق ، ويتولى شراءها موظف يدعى (شيخ الجمل).[١]

١١ـ وصف الكعبة

وصف العمرى للكعبة :

وصف العمرى الكعبة فى كتابه (مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار) ، كما رآها حينما أدّى فريضة الحج سنة ٧٣٨ هـ ، فقال : « فاعلم أن الكعبة ، البيت الحرام ، مربعة البنيان فى وسط المسجد . ارتفاعها من الأرض سبعة وعشرون ذراعاً ، وعرض الجدار ، وجهها الآن ، أربعة وعشرون ذراعاً ، وهو الذى فيه بابها ، وعرض مؤخرها مثل ذلك ،

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين جـ ٨ ص ١٥٢ .

وعرض جدارها الذى يلى اليمن ، وهو فيما بين الركن اليمانى والركن العراقى ، وهو الذى فيه الحجر الأسود ، عشرون ذراعاً . وإلى وسط هذا الجدار كان يصلى النبى صلى الله عليه وسلم قبل هجرته إلى المدينة . وعرض جدارها الذى يلى الشام ، وهو الذى فيما بين الركن الشامى والركن الغربى واحد وعشرون ذراعاً ، وميزاب الكعبة على وسطه يسكب فى الحجر . ومن أصل هذا الجدار إلى أقصى الجدار ستة عشر ذراعاً .

وعرض باب الحجر الشامى خمسه أذرع إلاّ شيئاً يسيراً ، وعرض بابه الغربى ستة أذرع إلاّ شيئاً يسيراً ، وجدار الحجر مدور من بابه الشامى إلى بابه الغربى كالطيلسان ، وعرضه ذراع وارتفاعه من الأرض أربعة أشبار . والحجر الأسود فى الركن العراقى المقابل لزمزم وهو على سبعة أشبار من الكعبة . وباب الكعبة على أربعة أذرع من الأرض ، وعلوّه ستة أذرع ، وعرضه أربعة أذرع .

وما بين الباب والحجر الأسود أربعة أذرع ، ويسمى هذا الموضع الملتزم ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين فرغ من طوافه التزمه ودعا فيه ، ثم التفت فرأى عمر فقال : ها هنا تسكب العبرات . ومن الباب إلى مصلى آدم عليه السلام حين فرغ من طوافه ، وأنزل الله التوبة وهو موضع الخلوق ، ومن إزار الكعبة ، أرجح من سبعة أذرع . وكان هناك موضع مقام إبراهيم . . .

وبين موضع الخلوق — وهو مصلى آدم عليه السلام — وبين الركن الشامى ثمانية أذرع ، ومن الركن الشامى إلى اللوح المرمر المنقوش فى الحجر الذى بنى هناك ابن الزبير ركن إبراهيم ، وهو على قواعد إبراهيم عليه السلام ، تسعة أذرع .

وفيما بين الحجر إلى مقام إبراهيم خمسة وعشرون ذراعاً ، ويسمى ذلك الحطيم ، لأنه يحطم الذنوب أى يسقطها . . . وفيما بين الركن العراقى

— وهو الذى فيه الحجر الأسود — إلى مصلى النبى صلى الله عليه وسلم قبل هجرته إلى المدينة ، عشرة أذرع . . . وبين الركن اليمانى وبين الباب المسدود فى ظهر الكعبة أربعة أذرع . ويسمى ذلك الموضع المستجار من الذنوب . وعرض الباب خمسة أذرع ، وارتفاعه سبعة أذرع . وبينه وبين الركن الغربى ثلاثة عشر ذراعاً ، وبين الركن الغربى وآخر قواعد إبراهيم — وهناك اللوح المرمر المنقوش — أزيد من سبعة أذرع وإلى هناك بنى ابن الزبير »[١] .

وصف ابن بطوطة للكعبة :

كان مولد الرّحالة ابن بطوطة فى سنة ١٣٠٤ م وتوفى سنة ١٣٧٧ م وقد زار مكة خلال رحلته الأولى (١٣٢٥ — ١٣٤٩ م) ، ووصف الكعبة كما شاهدها ، فقال : « والكعبة ماثلة فى وسط المسجد ، وهى بنية مربعة ارتفاعها فى الهواء من الجهات الثلاث ثمان وعشرون ذراعاً ، من الجهة الرابعة ، التى بين الحجر الأسود والركن اليمانى تسع وعشرون ذراعاً ، وعرض صفحتها التى من الركن العراقى إلى الحجر الأسود أربعة وخمسون شبراً ، وكذلك عرض الصفحة التى تقابلها من الركن اليمانى إلى الركن الشامى . وعرض صفحتها التى من الركن العراقى إلى الركن الشّامى من داخل الحجر ثمانية وأربعون شبراً ، وكذلك عرض الصفحة التى تقابلها من الركن الشامى إلى الركن العراقى . وأما خارج الحجر فإنه مائة وعشرون شبراً . والطواف إنما خارج الحجر .

وبناؤها بالحجارة الصمّ السمر ، وقد ألصقت بأبدع الإلصاق وأحكمه وأشدّه ، فلا تغيرها الأيام ولا تؤثر فيها الأزمان . وباب الكعبة

(١) مسالك الأبصار جـ ١ ص ١٠٢ — ١٠٤ .

المعظمة فى الصفح[١] الذى بين الحجر الأسود والركن العراقى ، وبينه وبين الحجر الأسود عشرة أشبار . وذلك الموضع هو المسمى بالملتزم حيث يستجاب الدعاء . وارتفاع الباب عن الأرض أحد عشر شبراً ونصف شبر ، وسعته ثمانية أشبار ، وطوله ثلاثة عشر شبراً ، وعرض الحائط الذى ينطوى عليه خمسة أشبار وهو مصفح بصفائح الفضة ، بديع الصنعة ، وعضادتاه وعتبته العليا مصفحات بالفضة . ويفتح الباب الكريم فى كل يوم جمعة بعد الصلاة ، ويفتح فى يوم مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم . . .

وداخل الكعبة الشريفة مفروش بالرخام المجزّع وحيطانه كذلك ، وله أعمدة ثلاثة طوال مفرطة الطول من خشب الساج ، بين كل عمود منها وبين الآخر أربع خطى. وهى متوسطة فى الفضاء داخل الكعبة الشريفة ، يقابل الأوسط منها نصف عرض الصفح الذى بين الركنين العراقى والشامى .

وستور الكعبة الشريفة من الحرير الأسود مكتوب فيها بالأبيض ، وهى تتلألأ عليها نوراً وإشراقاً ، وتكسو جميعها من الأعلى إلى الأرض .

ومن عجائب الآيات فى الكعبة الكريمة أن بابها يفتح والحرم غاص بأمم لا يحصيها إلاّ الله الذى خلقهم ورزقهم ، فيدخلونها أجمعين ولا تضيق عنهم . ومن عجائبها أنها لا تخلو من طائف أبداً ليلا ولا نهاراً ، ولم يذكر أحد أنه رآها قط دون طائف . ومن عجائبها أن حمام مكة على كثرته وسواه من الطير لا ينزل عليها ولا يعلوها فى الطيران ، وتجد الحمام يطير إلى أعلى الحرم كله ، فإذا الكعبة الشريفة عرج عنها إلى إحدى الجهات ولم يعلها »[٢] .

---

(١) الصفح : الجهة .

(٢) انظر رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ١٠٥ – ١٠٦ .

وصف الكعبة :

شكل الكعبة مربع تقريباً ، مبنية بالحجارة الزرقاء الصلبة ، ويبلغ ارتفاعها ١٥ متراً وطول ضلعها الذى فيه الميزاب والذى قبالته ١٠ أمتار و ١٠ سنتيمترات ، وطول الضلع الذى فيه الباب والذى يقابله اثنى عشر متراً ، وبابها على ارتفاع مترين من الأرض ، ويصعد إليها بسلم كسلالم المنابر . وسلمها الحالى من الخشب المصفح بالفضة أهداه إلى الكعبة أحد أمراء الهند ، وهو لا يوضع فى مكانه منها إلا إذا فتح للزائرين وفى الاحتفالات الكبرى وهى لا تزيد عن خمس عشرة مرّة فى السنة .

وفى الركن الذى على يسار باب الكعبة الحجر الأسود، على ارتفاع متر وخمسين سنتيمتراً من أرض المطاف .

يسمى العرب زوايا الكعبة بالأركان على حسب اتجاهاتها ، فيسمى الشمالى بالركن العراقى ، والغربى بالشامى ، والقبلى باليمانى ، والشرقى بالأسود لأن فيه الحجر الأسود ، وهو حجر صقيل بيضى الشكل غير منتظم ، لونه أسود ضارب إلى الحمرة ، وفيه نقط حمراء وتعاريج صفراء ، وهى أثر لحام القطع التى كانت تكسرت منه ، قطره نحو ٣٠ سنتيمتراً يحيط به إطار من الفضة عرضه ١٠ سنتيمترات . والمسافة التى بين ركن الحجر وباب الكعبة يسمونها الملتزم وهو ما يلتزمه الطائف ، فى دعائه واستغاثته .

ويخرج من منتصف الحائط الشمالى الغربى من أعلاه الميزاب ، ويقال له ميزاب الرحمة ، وهو من عمل الحجاج حتى لا يقف المطر على سطحها ، فغيره السلطان سليمان سنة ٩٥٩ بآخر من الفضة ، وأبدله السلطان أحمد سنة ١٠٢١ بآخر من الفضة المنقوشة بالميناء الزرقاء تتخللها النقوش الذهبية . وفى سنة ١٢٧٣ أرسل إليها السلطان عبد المجيد ميزاباً

من الذهب وهو الموجود بها الآن .

وقبالة الميزاب يوجد الحطيم ، وهو قوس من البناء طرفاه إلى زاويتى البيت الشمالية والغربية ، ويبعدان عنهما بمترين وثلاثة سنتيمترات ، ويبلغ ارتفاعه متراً وسمكه متراً ونصف متر ، وهو مبطن بالرخام المنقوش وفى محيطه من أعلاه كتابة محفورة . والمسافة بين منتصف هذا القوس من داخله إلى منتصف ضلع الكعبة ثمانية أمتار وأربعة وأربعون سنتيمتراً . والفضاء الواقع بين الحطيم وحائط البيت يسمونه حجرة إسماعيل ، وقد كان يدخل منه ثلاثة أمتار تقريباً فى الكعبة فى بناء إبراهيم . ويقال إن هاجر وإسماعيل مدفونان به .

أما شكل الكعبة من الداخل ، فربع مشطور الزاوية الشمالية وبهذه الشطرة باب صغير اسمه باب التوبة يوصل إلى سلم صغير يصعد به إلى سطحها . وبوسطها من الداخل ثلاثة أعمدة من خشب العود عليها مقاصير وترتكز على حائط الميزاب من جهة وحائط الحجر الأسود من جهة أخرى . وهذه الأعمدة موجودة من عهد عبد الله بن الزبير وهى غالية القيمة جداً . ويغطى سقف الكعبة وحوائطها من الداخل كسوة من الحرير الوردى عليها مربعات مكتوب فيها (الله جلّ جلاله) . وفى قبالة الداخل من الباب محراب كان يصلى فيه النبى صلى الله عليه وسلم . ويحيط ببناء البيت من الداخل هامش من الرخام المجزع على ارتفاع نحو مترين .

وداخل البيت ألواح محفور فيها أسماء من أحدثوا به شيئاً من العمارة . وبجانب الباب على يسار الداخل خوان من الخشب مغطى بالحرير الأخضر موضوع عليها كيس مفاتيح الكعبة وهو من الأطلس الأخضر المزركش بأسلاك الفضة .

تفتح الكعبة فى العاشر من المحرم للرجال ، وفى ليلة الحادى عشر منه للنساء . وفى ليلة الثانى عشر من ربيع الأول . وتفتح فى العشرين من

الحرم لتغسل . وفى أول جمعة من رجب للرجال ، وفى مسائه للنساء ، وفى ليلة النصف من شعبان . وفى يوم الجمعة الأولى من رمضان للرجال وفى تاليه للنساء . وفى آخر جمعة من رمضان أيضاً ، وفى نصف ذى القعدة للرجال وفى تاليه للنساء ، وفى عشرين منه لغسلها ، وفى الثامن والعشرين منه لإحرامها ، أى بإحاطتها بقماش أبيض من الخارج على ارتفاع نحو مترين من أرض المطاف . وتفتح فى موسم الحج لمن يزورها من الحجاج ، وتفتح أيضاً فى نحو العشرين من ذى الحجة لغسلها .

ولغسل الكعبة احتفال عظيم ، يحضره كبار الشخصيات والحجاج ، فيدخل شريف مكة فيصلى ركعتين ، ثم يؤتى بدلاء من ماء زمزم فيغسل أرضها بمكانس صغيرة من الخوص ، ويسيل الماء من ثقب فى عتبتها ، ثم يغسلها بماء الورد ، ثم يضمخ أرضها وحوائطها على ارتفاع الأيدى بأنواع الأدهان العطرية ، وفى أثناء ذلك يكون البخور متصاعداً فيها . ثم يقف الشريف على الباب ويلقى على الحاضرين المكانس التى استخدمها فى غسل الكعبة ، فيتهالك الواقفون عليها ، فمن حصل على واحدة عدّها من الذخائر التى لا تقدر بمال (١) .

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين جـ ٨ ص ١٤٦ .

فهرس

الصفحة

رقم الإيداع		١٩٨٦ / ٣٩٧٠
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-١٧١١-٥	ISBN

١ / ٨٦ / ٢٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



بهذا الفعل الجميل (اقرأ) : تدعوك دار المعارف إلى قراءة تراث هذه السلسلة العريقة .. بأقلام كبار كتابنا .. لتعيش معهم .. كما عاش الآباء والأجداد .. وتكوِّن فى مكتبتك موسوعةً متفرقة فى فروع المعرفة المختلفة .

وإيمانًا منا بأن القراءة هى أقصر الطرق إلى الوعى والثقافة .. فقد يسَّرنا لك ذلك فى إخراج جيد .. وسعر زهيد .

٤٠٣١٥٠/٠٢